أصول الأُبوَّة الروحية

عند آباء البرية



دار مجلة مرقس

رسم فريسكو على جدار هيكل يوحنا المعمدان بكنيسة أنبا مقار بديره ببرية شيهيت، يمثل القديس باخوميوس أب الشركة وبجانبه رسم للمفاتيح الثلاثة أي النذور الرهبانية الثلاثة، وكذلك اللوح الذي يحوي قوانين القديس باخوميوس.

أُصول الأُبوَّة الروحية

عند آباء البرية

دار مجلة مرقس

كتاب: أصول الأُبوَّة الروحية عند آباء البرية
ترجمة وإعداد: رهبان دير القديس أنبا مقار
[مقالات مترجمة عن كتاب:
LA PATERNITE SPIRITUELLE EN RUSSIE
AUX XVIII ème ET XIX ème SIECLES
وهو المجلّد رقم ٢١ من مجموعة SPIRITUALITE ORIENTALE
الصادر عن دار: Abbaye de Bellefontaie بفرنسا عام ١٩٧٧]
وقد نُشرت بمجلة مرقس الأعداد سبتمبر واكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٨٦م.
الناشر: دار مجلة مرقس
الطبعة الأُولى: ١٩٩٤
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون
ص.ب: ٢٧٨٠ ـ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/٤١٦٢
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-5545-03-X

المحتويات

المقدمة

الأب بلاسيد (P. Placide Deseille) من علماء الباترولوجيا المعاصرين، والمتخصص بالأكثر في آباء الرهبنة - حياتهم وأقوالهم ومناهجهم الروحية - وهو من الرهبان الصامتين (الترابيست Trapistes) ولكنه لمّا زار مصر في أواخر الخمسينات وقابل آباء الرهبنة القبطية أُعجب بالرهبنة المصرية المعاصرة وأحسّ أنها مواصلة أصيلة حيّة للرهبنة الأُولى في عصرها الذهبي: عصر الآباء الأوائل القديسين: أنطونيوس ومقاريوس وباخوميوس ... فبعد عودته إلى فرنسا لم يطق الصمت بل انطلق لسانه وقلمه «يُخرجان جُدداً وعتقاء» من كنوز الآباء الأوائل ويكشفان عن الأعماق الروحية الإنجيلية الأصيلة التي عاشها الآباء وسلموها لأولادهم جيلاً بعد جيل حتى وصلت إلينا نحن اليوم.

الباب الأول

أصول الأُبوّة الروحية

عند آباء البرية

من السمات الهامة التي تتميّز بها المسيحية الشرقية، تجانسها الكامل مع المبادىء المسيحية في أصولها الأولى، والاستمرارية الحيَّة التي تجعلها وثيقة الصلة بكنيسة الآباء في الأربعة قرون الأولى، حينما كانت المسيحية واحدة شرقاً وغرباً تتبع نفس التعليم والتقليد الرسولي الواحد، وهذه الحقبة هي الآن موضع اتفاق وتوقير الكنائس أجمع، هذا التأصل في التقليد الذي يُرى بصورة ملموسة جداً سواء في الصلوات الليتورجية أو التعبيرات اللاهوتية، ويتأكد بصفة خاصة في الحياة الرهبانية.

في الواقع إذا زُرنا بعضاً من الأديرة الأرثوذكسية اليوم، لا يمكن إلاّ أن ننذهل من المماثلة الشديدة التي تظهر بين حياة الرهبان الذين نتقابل معهم هناك، وتلك التي للشخصيات الرئيسية التي تجدها في الكتب الخاصة بتدوين حياة وأقوال آباء البرية الأوائل. وهنا ينبغي أن نقول: إنه حيث تزدهر عناصر جديدة بكثرة وتتجلّى الحياة الروحية بعمق، فهناك يحس الإنسان أكثر بهذا التماثل – كل هذا بالرغم من أن هؤلاء الرهبان هم من أهل عصرهم، فبعضٌ منهم قد ارتاد الأوساط

الجامعية، ومنهم مَنْ كان يشغل وظائف فنية حديثة بعض الوقت قبل التحاقهم بالدير.

أمَّا إحدى المزايا العظيمة لهذه الاستمرارية فهو وجود سلالة الآباء الروحيين الذين فيهم وبهم تتواصل موهبة كبار آباء البرية. إنه عن طريقهم يكتمل التقليد الحي – ليس كمجرد حفظ عادات مكتسبة، بل هو تسليم لنعمة ولخبرة روحية يمدَّان بالحياة بلا توقف، وكأنهما يخلقان من الداخل في كل عصر صوراً من الحياة وأنماطاً هي في آن واحد قديمة وجديدة دائماً – وهذه أدلة ماثلة للعيان لشركة الإيمان الواحد مع كل الأجيال السابقة، ووسائط نعمة دائمة تتناسب مع احتياجات كل واحد للقوة الروحية التي من شأنها أن تدرجنا في عداد المملكة التي ليست من هذا العالم.

الحياة شبه التوحدية المصرية

تحكي لنا مدوَّنات سير وأقوال آباء البرية هذه القصة التالية:

[سأل أخ (راهب) شيخاً (أباً روحياً محنكاً): "ماذا ينبغي للإنسان أن يعمل لكي يكتسب الفضائل؟" أجاب الأب: "إذا أراد أحدٌ أن يتعلَّم حرفة ما فإنه يترك كل مشغولية أخرى ويعد نفسه جاهلاً. وبهذا الاتضاع يمكنه أن يحصل على موهبة هذه الحرفة – كذلك هو شأن الراهب: إن لم يترك عنه كل همٍّ بشري ويزدري بنفسه هو أكثر من أيٍّ مَنْ كان، ولا يعتبر أنه أفضل من هذا، ولا أنه نظير ذاك، فإنه لن يقتني قط أيَّةَ فضيلة.

أمّـا إذا اتضـع واسـتهان بنفسـه في كـل شـيء، حينئـذٍ سـتجد الفضـائل قبـولاً عنـده، ومـن ذاتهـا سـتأتي إليـه، لأنـه مكتـوب: «وفيمـا أنـت تتكلّـم، سيقول: هـا أنـذا» (إش ٦٥: ٢٤)."][1]

هـذا النـص جدير بالاهتمـام كونـه أكثر من مجـرد قصة مـن مجموعـة أقـوال مدونـة. إنـه يسـاعدنا أساسـاً علـى أن نفهـم في أي إطـار كـانت تُجرى ممارسـة الأُبـوَّة الروحيـة في بـراري مصـر حيـث كـانت تعيـش مجموعـات مـن اثنين أو ثلاثـة طـوال الأسبوع حـول أب روحـي في قـلالي متنـاثرة، ولا تجتمـع مـع بقيـة أعضـاء الجماعـات المتماثلـة عـدا يومـي السبت والأحـد للاشتراك في القُـدَّاس بالكنيسـة الكبرى وسـط القـلالي.

في هـذا المثـال المأثور الـذي قـد أوردنـاه تـواً نجـد التلميـذ يطلـب مـن الأب الروحـي "كيـف تُقتنـى موهبـة الفضـائل؟" وكلمـة "موهبـة" تحتمـل تـأويلات لعـدة معـان متنوعـة، ولكـن عنـد آبـاء البريـة نجـد المعنـى التلقـائي لهـا هـو: استعلانات الـروح القـدس الجليـة والفائقـة. ولا تكـف مدونـات أقـوال الآبـاء المأثورة وسـير القديسـين أن تذكـر دائمـاً المواهـب العجيبـة الـتي كـان يحظـى بهـا آبـاء البريـة والـتي تجعـل مـن الرهبنـة الأولى حركـة مواهـب جديـدة تذكّرنـا بالكنيسـة في عصرهـا الرسـولي:

بصيرة فائقـة للطبيعـة (موهبـة الإفـراز)، موهبـة معجـزات وأشـفية، تمييز الأرواح، نبـوَّة؛ يُضـاف إلى هـذا أحيانـاً ظواهـر لمعـان الجسـد بـالنور (الـتي اشتهر بهـا عديـد مـن القديسـين) ـ هـذه المواهـب هـي أدلـة واضحـة علـى تملُّـك الـروح القـدس لكيـانهم؛ وهـي تُعلـن للآخريـن أن ملكـوت الله قـد

---

(١) أقوال آباء البرية *Les apophtegmes des Péres du désert*

حلَّ بيننا.

وهكذا يبرز دور الأب الروحي تجاه تلاميذه؛ أنه أكثر من أن يكون معلِّماً للمبتدئين أو مرشداً روحياً أو حتى زعيماً دينياً. إنه شاهد عيان لانسكاب الروح القدس الذي تكلَّم عنه الأنبياء ووعد به الرب، إنه إنسان تتجلَّى فيه بوضوح روح النبوَّة في العهد الجديد، والذي يمكنه بدوره أن ينقل هذا الروح لكل مَن يمنحهم الشكل (الإسكيم) الرهباني، كإيليَّا الذي سلَّم لأليشع مع ردائه ضعفين من روحه النبوية (٢مل ٢:٩-١٥)

ومع هذا ينبغي أن نوضح أنه بالرغم من أن تعدُّد المواهب الفائقة في الأوساط الرهبانية الأُولى لا يمكن إنكاره، إلاَّ أن آباء البرية الروحيين كانوا في الواقع لا يبالون كثيراً بهذه المواهب المنظورة بقدر اهتمامهم بالاستعلانات الباطنية لانسكاب الروح. وكأنه بالرغم عنهم، كانت تنكشف قدرتهم على صنع المعجزات ونوالهم موهبة النبوَّة؛ هذه التي كانوا لا يبتغون إلاَّ إخفاءها من أمام عيون الناس. وفي هذه الحكمة المأثورة عن آباء البرية التي أوردناها هنا، فإن "موهبة الفضائل" لا تعني البتة هبة المعجزات: فسياق الحديث الذي استخدم فيه هذا التعبير أصلاً يشير إلى أنه يعني بـ "الفضائل": الصوم، والصلاة، والعفة الجسدية. ولكن الجدير بالاهتمام أن هذه الفضائل لا تعني هنا مجرد قدرات بسيطة لممارسة مبادىء أخلاقية ونسكية كثمار طبيعية لجهود الإنسان؛ ففي نص هذا المبدأ الرهباني الذي ذكرناه الآن فإن هذه الفضائل "تجد قبولاً عنده"؛ "ومن ذاتها ستأتي إليه"، بقوة دفع داخلية بفاعلية مستمدة من الروح القدس، حيث يختبر الإنسان في

باطنه معنى النصرة.

تلك هي في الواقع حقيقة هبة الروح القدس الكاملة التي يبتغي راهب البرية أن ينالها، إنها أساسٌ لحياةٍ يعمل فيها الإنسان تحت قوة دفع إلهية، حيث لا يكتفي الإنسان فيما بعد بأن يطيع مجرد ناموس خارجي، بل تصير لديه ممارسة الفضائل المسيحية والأعمال النسكية ولا سيما الصلاة، صادرة من تلقاء النفس. ويمكن القول بأن الأمور الفائقة التي من النعمة الإلهية تصبح وكأنها طبيعية، هذه الخبرة تقترب كثيراً من مفهوم "المعرفة" أو قوة التمييز (البصيرة الروحية) اللذين يرى فيهما القديس بولس ثمار النضج الكامل للمسيحي:

+ «لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن. ليَحُلَّ المسيحُ بالإيمان في قلوبكم. وأنتم متأصِّلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف ٣:١٦-١٩)

+ «وهذا أُصلِّيه أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم، حتى تميزوا الأمور السامية، لكي تكونوا مخلصين وبلا عثرة إلى يوم المسيح. مملوئين من ثمر البر الذي بيسوع المسيح لمجد الله وحمده.» (في ١:٩-١١)

كما تقترب هذه الخبرة من "المواهب" التي ذكرها القديس بولس في رسالته الأُولى إلى أهل كورنثوس (١٤:٤-١١).

ويصف أحد وارثي تقليد البرية المتحنكين فيما يلي حالة الإنسان

الـذي قـد صـار "روحيـاً":

[ليت الرب يسوع ابن الله – تبارك وتمجَّد اسمه – يقويكم ويؤهلكم لنوال روحه القدوس، لكي يأتي وبنعمة حضوره يعلِّمكم كل شيء، وينير قلوبكم، ويقودكم إلى الحق ... ليت الرب يجعلكم مستحقين لأن تشربوا من نبع الحكمة! لأن كل أولئك الذين شربوا منه نسوا أنفسهم، وخرجوا تماماً عمَّا كان عليه إنسانهم العتيق؛ ومن نبع الحكمة اقتيدوا إلى نبع آخر هو نبع المحبة الذي لا ينضب أبداً. ولمَّا بلغوا إلى هذه الدرجة وصلوا إلى حالة من السلام الداخلي، حيث لا يعود شيء يقلقهم أو فكرٌ يشتِّتهم، كونهم صاروا بالتمام في ملء النور، وملء الكمال، وكأنهم صاروا تماماً آلهةً على الأرض ... وأضحوا يتنعمون في الثالوث الأقدس في شركة غير منقسمة، فرحين مع القوات السمائية. فاطلبوا منزلتهم واركضوا في الجهاد مثلهم ...][٢]

فيما يتعلَّق بالخبرة الروحية نجد أن شيوخ البرية كانوا شديدي التحفُّظ على مواهبهم التي كانت واضحة جليَّة للعيان؛ واعترافاتهم الشخصية عنها كانت تأتي بصفة عامة في صورة إلماحات مستترة، على منوال القديس بولس عندما يقول: «أعرف إنساناً ...» (٢كو ١٢: ٢–٥). إنهم واعون تماماً بمدى حِيَل وشِرَاك المجد الباطل، حذرون جداً من الشغف بهذه الأمور التي يمكن أن يصاحبها الخداع في هذا المجال؛ حتى إنهم كانوا يفضِّلون بصفة عامة أن يقودوا

(٢) القديس برصنوفيوس و يوحنا الغزاوي:

BARSANUPHE ET JEAN DE GAZA, *Correspondance*, Solesmes 1971,p. 168.

تلاميذهم هويداً هويداً نحو القمم الروحية أحْرى من أن يتسرعوا ويصفوها لهم بطريقة حماسية، لكي يستكِدُّوهم. هذا التحفظ الذي يعطي لتعليمهم صورة نسكية واضحة، ليس في الواقع إلاَّ دليلاً على روحانية حقيقية متينة، وحياة باطنية عميقة. وهو لا ينفي عن روحانيتهم إطلاقاً السمة الرسولية والطابع الإنجيلي للروحانية.

ولكن إذا أمعنَّا النظر، نجد أن روح الأُبوَّة لا ينتقل من الأب الروحي إلى تلاميذه بطريقة فورية؛ إنما كان يتطلب نمواً ناضجاً على الهُوَيْنا (بصبر وطول أناة من جهة الأب الروحي نحو ابنه). إن تسلسل الخبرة الروحية هنا قد يختلف نوعاً ما عن ذلك الذي يظهر دفعات كثيرة في سفر أعمال الرسل، حيث نرى الروح القدس "يحلّ" على التلاميذ بطريقة بيِّنة بادية للعيان، حالما يضع الرسل أيديهم عليهم: (كما في سفر أعمال الرسل ٨:١٧ «حينئذ وضعا "بطرس ويوحنا" الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس»؛ ١٩:٦ «ولما وضع بولس يديه عليهم حلّ الروح القدس عليهم»)؛ أمَّا في هذه الخبرة الروحية عند آباء البرية فنحن، في الواقع، نكون أقرب إلى ما يُعلِّم به القديس بولس الرسول في رسائله عن النمو الروحي والنضوج المسيحي:

+ «وهذا أُصلِّيه أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم.» (في ١:٩)

+ «أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدَّام. أسعى نحو الغرض لأجل جِعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع.» (في ٣: ١٣و١٤)

+ «لكننا نتكلَّم بحكمة بين الكاملين ولكن بحكمة ليست من هذا

الدهـر ...» (١كـو ٢:٦)

+ «... وصرتم محتاجين إلى اللبن لا إلى طعام قوي ... وأمَّا الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرُّن قد صارت لهم الحواس مدرَّبة على التمييز بين الخير والشر.» (عب ٥:١٢-١٤)

إن نقطة الانطلاق لهذا النمو هي المعمودية، التي لم يكن المعلِّمون الروحيون المصريون يقللون أبداً من أهميتها الأساسية، ولكن موهبة الروح القدس في المعمودية هي غير محسوسة، وفي أغلب الأحوال تعلو على كل خبرة؛ ولكن لكي يصل المسيحي إلى الوعي بهذه الحضرة الإلهية التي تسكنه، وإلى الإدراك بطريقة اختبارية نوعاً ما لحركة وإنارة الروح القدس الباطنية، يلزمه أن يعدَّ نفسه لذلك وقتاً طويلاً بأن ينفِّذ وصايا الرب بمجهوداته الشخصية، مُعاناً بكيفية غير منظورة بالنعمة وتحت قيادة أب روحي[٣].

وعندما صاغ علماء اللاهوت ذلك التعليم الروحي لآباء البرية في مقولات مستعارة من الفلسفة اليونانية، بدأوا يميزون بين وجهتي الحياة المسيحية ـ الجهاد النسكي من جهة، وخبرة التجديد الداخلي في الروح القدس من جهة أخرى ـ فدعوا الأُولى: **العمل أو الممارسة** ***praktikè*** والثانية: **التأمل** ***théoria*** ولكن هاتين العبارتين الاصطلاحيتين تحولتا في استعمالهما المسيحي تحوُّلاً عميقاً: فإن

(٣) إن الأهمية التي يعلقها آباء البرية على هذا النُضج الروحي التدريجي وعلى ضرورة تطهير القلب من كل تعلُّق بالأنا (أي الذات) عن طريق النسك والطاعة، قبل إمكانية فيض الروح القدس ودون خطر الانخداع إنما تميز تمييزاً ملموساً روحانية الآباء عن بعض تلك التيارات المعاصرة مثل المسمَّاة بالخاريسماتيك (Charismatique).

"الثيئوريـا" فقـدت طابعهـا العقلانـي لتصبـح: شـركة اختبارية مـع الله، والأخـرى "البراكتيكـا" لم تَعُـدْ جهـداً أخلاقيـاً ولا فنـاً بشـرياً للتحريـر الروحي يتناسـب تطبيقـه علـى وجـه فعّـال مـع القـدرات الطبيعيـة للإنسـان؛ بـل صـارت الغايـة منهـا هـي أن تعدّ التلميـذ لأن يكـون واعيـاً للإيحـاءات الداخليـة للنعمـة وإلى تمييزهـا مـن إلهامـات العـدو، وإلى التجـاوب مـع تلـك الإيحاءات، وأن يتأهب هكـذا لقبـول فيـض أكـثر مـن الـروح القـدس الـذي يُعطي دائمـاً مجانـاً. فيوجـد في صلـب هـذا النسـك التواضـع، والتجـرُّد مـن حُـب التملُّـك الذاتـي، والبصـيرة الروحيـة (أو الإفـراز والتمييـز)؛ وبهـذا يكـون هـذا النسـك، في ذات الوقـت، تدريبـاً لتعلُّـم الحريـة الروحيـة، لأنـه يقـود التلميـذ تدريجيـاً إلى أن يعمـل، ليـس مدفوعـاً بدوافـع خارجيـة مثـل الخـوف مـن عـدم رضـى النـاس، أو الرغبـة في التقديـر مـن قِبَلهـم، أو الخـوف مـن العقـاب، أو الأمـل في مكافـأة – ولكـن إطاعـة فقـط لضمـيره، ولأنـه يعمـل الخـير لأن الله – بإعطائنـا روحـه القـدوس – إنمـا يوقـظ في قلبنا الإحساس البـاطني الأكيـد بحـب هـذا الخـير والانجـذاب إليـه.

إن رهبان البراري المصريـة كـانوا حقـاً بعيديـن كـل البعـد عـن كـل مـن المنهجـين المتطرفـين المتضـادين التـاليين: مـن جهـة منهـج الطمأنينـة السـلبية queétisme أي إنكـار ضـرورة الجهـاد وضـرورة النمـو، ومـن جهـة أخـرى منهـج البيلاجيـة pélagianisme أي الاعتمـاد الكلـي علـى الجهـاد البشـري دون اعتبـار لأهميـة النعمـة. فلـم يكـن مـن مبدئهـم أن ينتظـروا في سـالبية وبـدون جهـاد أن يحركهـم الـروح، ولا حتـى أن يكتفـوا فقـط باسـتدعائه في الصـلاة، بـل إن الراهـب ينبغـي "أن يغصـب نفسـه في كـل

شيء" كما يقول الأبّا زكريا[٤]، وفي عبارة وجيزة قوية يقول الأبّا لونجينوس[٥]: "أعطِ دماً وخُذْ روحاً". إن للأصوام، والأسهار، وسائر الأعمال النُسكية دوراً هاماً في حياة الراهب؛ إنها تعطي فرصة للكيان كله – جسداً وروحاً – أن يقدِّم ذبيحة صلاته كاملة مع اتضاع القلب، أي أن يكرس حياته بكاملها للرب. وهذا هو، في الواقع، التعبير عن بذل الذات "من أجل الرب".

إن دور الأب الروحي في رهبنة البرية ينبغي أن يُفهم على أنه ذو دلالة هامة في هذا الطريق الروحاني. هذا الدور يتلخّص أساساً في أمرين:

١ – فبفضل مثال حياته المنيرة بالروح القدس، الذي يجعلها تتجلّى بوضوح أمام الآخرين؛
٢ – ثم بفضل الدّالة التي له عند الرب وتوسلاته من أجل أبنائه؛

يعمل الأب الروحي على إيقاظ وعي أبنائه بطاقات سر العماد الكامنة في داخلهم، ويطلب لهم من الرب نعمة إحساس وتذوُّق الحقائق الروحية.

لذلك، كان هناك راهب اعتاد أن يزور الأبّا أنطونيوس عاماً بعد عام، ولم يكن ليسأله شيئاً البتة، ولكنه أخيراً اعترف له قائلاً: "يكفيني يا أبي مجرد النظر إليك"؛ وكان الأبّا آمون يعطي هذه النصيحة: "في أي وقت داهمتك التجربة قل: يا إله القوات، بصلوات أبي نجني"[٦].

(٤) بستان الرهبان الأبجدي بالفرنسية صفحة ٩٨.
(٥) نفس المرجع صفحة ١٦٥.
(٦) نفس المرجع السابق في سيرة وأقوال الأبّا أنطونيوس والأبّا آمون صفحة ٢٧و٦٠.

من ناحية أخرى نجد أن الأب الروحي يُعني جداً بإعداد تلميذه للحصول على موهبة الإفراز، التي هو في أمَسّ الحاجة إليها أيضاً، وبحسب ما جاء في كل الأدب الرهباني القديم: فإن أهم أداة في سلاح الراهب الشاب هي: كشف الأفكار، أعني بها الإيحاءات والإيعازات التي تتولّد في القلب (إيجابية كانت أو سلبية). ورداً على تلميذ يسأل بخصوص هذا الموضوع يجيب الشيخ (وهو الأب الروحي) بكلمة كلها حكمة، ليست هي مجرد مشورة لفظية بشرية، وإنما هي في الحقيقة كلمة مُلهمة في حينها، وإجابة كان يضعها الله على أفواه الآباء الذين نالوا منه هذه الموهبة. لذلك نجد هذا الشيخ الذي سُئل هذا السؤال "لا يستعجل في الكلام ولكن ينتظر أن يعطيه الله يقيناً داخلياً"[٧]. ولكن في الوقت نفسه لا نجد دائماً الآباء يُعَبِّرون بالكلمة عن إجاباتهم الملهمة؛ ولا سيما عندما يكون التلاميذ غير مستعدين أن يتقبّلوا بالإيمان هذه الكلمة، فكان الشيوخ يلتجئون إلى الصمت أو إلى التلاطف بدعابة أو بإجابة فيها شيء من اللغز المقصود أو الأُحجية.

إن اهتمام شيوخ البرية أن يُنمُّوا في تلاميذهم حياة روحية شخصية أصيلة؛ كان يعطي لتربيتهم طابعاً غير توجيهي مميزاً جداً وباعثاً على الدهشة. إنهم قد تحرروا من كل روح للتملك، غير واضعين في الاعتبار مسيرة مثالية معيَّنة للجماعة، غالباً ما كانوا يرفضون أن يفرضوا أي شيء، ولم يكونوا يريدون ممارسة أي ضغط على نفوس مريديهم، بل كانوا يسعون فقط إلى استنهاض التجاوب الحر للمطالب الإلهية.

---

(٧) نفس المرجع ما جاء عن الأنبا بامو قول رقم ٢ صفحة ٢٥٧.

[كان الأبّا إسحق يسرد هذه القصة: لمّا كنتُ شاباً، كانت إقامتي مع الأبّا كرونيوس، ولم يأمرني البتّة بعمل أي شيء كان، بالرغم من أنه كان يرتعش من كبر السن؛ ومع هذا كان يقوم (في ميعاد الأكل) ويحضر لي القصعة (الإناء فيه الطعام) وهكذا كان يعمل مع الجميع. وأقمت أيضاً مع الأبّا ثيئودور الفَرَمي: وهو أيضاً لم يأمرني مطلقاً بعمل أي شيء كان، ولكنه كان يُعِدُّ المائدة بنفسه ويقول لي: "يا أخي إذا شئت فَتعالَ كُلْ". أمّا أنا فكنت أقول له: "يا أبي جئتُ إلى عندك لفائدة نفسي؛ فلماذا لم تأمرني بعمل شيء ما؟"، إلاّ أن الشيخ كان يصمت صمتاً كاملاً. فذهبت لأكلم الشيوخ في هذا الأمر. فحضروا إلى عنده وقالوا له: "يا أبانا، هذا الأخ جاء إليك لفائدة نفسه؛ فلماذا لا تأمره بعمل شيء؟"، فردَّ قائلاً: "وهل أنا رئيس الدير حتى أُعطيه أوامر؟ فعلاً، أنا لا آمره بشيء؛ ولكن إذا شاء ذلك، فما يراني أعمله فَلْيعملْه هو بنفسه". ومنذ تلك اللحظة كنت أسبق وأعمل ما كان الشيخ مزمعاً أن يعمله. أمّا هو فأي شيءٍ عَمِلَه كان يَعْمَلُه في صمت، وأنا بدوري تعلّمت منه أن أعمل في صمت.][8]

[سأل أخٌ الأبّا بيمن قائلاً: "يوجد إخوة يسكنون معي؛ فهل تنصحني بأن أُوصيهم بعمل شيء؟" أجابه الشيخ: "لا؛ بل اعمل أنت أولاً ما تراه نافعاً من الأعمال الحسنة؛ وهم إذا أرادوا أن يقتنوا الحياة (الروحية السليمة)، سيرون بأنفسهم ما يليق بهم

(٨) نفس المرجع السابق ما جاء عن: أبّا إسحق قول ٢ صفحة ١٣٧.

أن يعملـوه". فاسـتأنف الأخ قـائلاً: "ولكنهـم هـم أنفسـهم يـا أبـي يرغبـون في أن أعهـد إليهـم بمـا ينبغـي أن يعملـوه"؛ فـردَّ الشـيخ قائلاً: "لا تفعل ذلـك إطلاقـاً بـل كُـن لهـم مثـالاً لا مُشـرِّعاً".][٩]

هـذه الفطنـة وهـذا التحفُّظ، لا يعنيـان أبـداً أن الأب الروحـي لا يبـالي بتقدم أبنائه؛ بـل علـى العكـس تمامـاً، فـإن غيرتـه تجعلـه بصفـة خاصـة أكثـر حِذْقـاً ويقظـة (في أُبوَّتـه الروحيـة).

[حُكـي عـن الأنَّبـا مقـاريوس الكبـير أن شـيخاً ذهـب لزيارتـه مـع أخ (أي راهـب). وقـال لـه كلاهمـا: "نريـد أن نسـكن معـاً، أحدُنـا مـع الآخر يا أبانـا". فقـال الأنَّبـا مقـار للشيخ: "اتخـذ لنفسـك أولاً مثـال الراعـي؛ الـذي إذا أصـابت ذبابـة الماشـية إحـدى غنماتـه بـالديدان، فإنـه يداويهـا ولا يسـتريح حتـى يقضـي علـى هـذه الديـدان؛ وإذا أُصيبـت بـالجرَب فإنـه يواليهـا بالدهـان المناسـب حتـى تُعـافَى منـه". فقـال لـه الشـيخ: "عرفـني فحـوى هـذا الكـلام". أجابـه الأنَّبـا مقـار قـائلاً: "الذبابـة هـي إبليـس والغنمـة هـي (نفـس) الأخ الـذي معـك (أي تلميـذك). الديـدان هـي الشـهوات والملـذات الحسـية الـتي يبثُّهـا العـدو في النفـس وتتكـاثر في القلـب كـالديدان في قـروح الجسـد؛ أمَّـا الـدواء الـذي يشـفي مـن ضربـة المـرض فهـو السـلوك الروحـاني والتعفف والزهد في كـل شـيء مـع التعليـم الخلاصـي الـذي مـن الله (أي إتِّبـاع وصايـا الإنجيـل). هـذه هـي الأمـور الـتي تطهـر النفـس، وتجعلهـا نقيـة مـن كـل الأهـواء المنحرفـة وتخلِّصهـا مـن كـل أذى الأعـداء الأشـرار، أعـني بهـم الأبالسـة. ثـم قـال أيضـاً لـلأخ: أمـا

---

(٩) نفس المرجع السابق صفحة ٢٥٣.

أنت يا ابني فتمثّل بإسحق الذي أطاع أباه إلى الحد الذي عنده رضي أن يقدّمه أبوه قرباناً كضحية مستطابة لدى الله، فصار بهذا مثالاً في الكنيسة حتى نهاية هذا الزمن، بمجد ربنا يسوع المسيح."[(١٠)]

فطاعة التلميذ في الواقع هي المقابل الواجب للعناية الأبوية التي يلقاها عند معلمه. وعبارة "مطيع كتلميذ المتوحد" كادت أن تصير مثلاً سائداً في الرهبنة الأرثوذكسية. وقد سبق القديس أنطونيوس الكبير وأسدى بهذه النصيحة:

[إنه خليق بالراهب – بقدر الإمكان – أن يستشير الشيوخ في عدد الخطوات (أي طول المسافة) التي يقطعها (خارج قلايته)، وعدد قطرات (أي كمية) الماء التي يشربها في قلايته، حتى يكون الأب على بيّنة من أنه لا يخطيء الطريق في سلوكه هذا.][(١١)]

وامتداداً بهذا التعليم نفسه قال شيخ آخر:

[هذا ما ينبغي عليك أن تحفظه حتى موافاة الأجل: لا تعمل شيئاً، صغيراً كان أم كبيراً، دون مشورة أبيك الروحي الذي يقيم معك؛ وبدون أخذ سماحه لا تغادر قلايتك؛ لا تشرب ماءً قبل أن يصلّي هو عليه، ولا تأكل فاكهة قبل أن يكون قد

---

(١٠) Les sentences des Pères, du désert, troisième recueil, par Dom Lucien, REGNAULT, Solesmes 1976.

(١١) Antoine 38; Les Apophtegmes des Pères du désert, Série alphabétique, trad. J.Cl. GUY, Bellefontaine 1986, p. 29.

رشمها بعلامة الصليب؛ ولا تمد يدك إلى وجبة طعام قبل أن تقول: "بارك يا أبي". لا تضع ماءً في الوعاء ولا زيتاً قبل أن تقول نفس الشيء. وإذا ما هجع الليل، لا تذهب إلى فراشك قبل أن تعمل له "ميطانيا"، وتأخذ منه الحِلَّ والسماح. وفي كل مرة يؤاخذك على أمر ما، فَقُلْ: "اغفر لي يا أبي".

إذا ما أتممت هذا فستكون مُمجَّداً ومبجَّلاً في نظر البشر ومُطوَّباً أمام الملائكة، وستنعم بملكوت السموات مع القديسين.

ولكن مَنْ لا يتمم هذه الوصايا الصُغرى، فلا يتوقع أن ينتصر على إبليس أي انتصار.][١٢]

✠ ✠ ✠

منهج الآباء الروحيين لبراري مصر يؤكد - بصفة عامة - ما كتبه مؤرخ عن التقاليد الدينية الكبرى غير المسيحية: "الحياة التقوية لا تُلقَّن، ولا يقدر المعلِّم الروحي إلاَّ أن يساعد على تفتُّحها ونموها، وهذا يكون بحياته وسلوكه التلقائي وبالاتصال المباشر بشخصه الذي سبق فتحوَّل إلى الأفضل، بخبرته الدينية الخاصة أكثر مما بتعاليمه النظرية أو العملية ... ثم أخيراً تتوارى وتختفي شخصية المعلِّم مثل مقياس المعادلة ليفسح المجال كله لِمَا بدأ ينبثق من داخل التلميذ. وعادة يكون السلوك من ناحيته: طول الأناة مع اليقظة اللذان يتطلبان ويسندان في الآخر (التلميذ) أملاً يختلط فيه الصبر مع التلهُّف اختلاطاً عجيباً. إن تعلُّم الفرائض والقوانين، والنواهي والعادات هي في آخر الأمر أقل أهمية من معاشرة المعلم (الروحي) أو الشيوخ، ويتوقف

---

(١٢) Les sentences des Pères du désert, troisiéme recueil, p. 27.

المبتدىء على أقوالهم وأعمالهم أقل مما على صمتهم وتحفُّظهم حتى يعرف هل هو فعلاً على الطريق"[١٣]

ولكن هذه المعطيات المشتركة هي في الرهبنة المصرية، من صميم الحياة المسيحية تماماً، والخبرة الروحية فيها هي خبرة حقيقية للروح القدس الذي استُعلن للبشر بواسطة الرب يسوع المسيح القائم من بين الأموات.

الحياة الرهبانية المشتركة الأُولى

إن أهمية وظيفة الأب الروحي في الحياة شبه التوحدية هي أمر لا جدال فيه، ولكن هل الوضع كذلك بالنسبة لأديرة الشركة الرهبانية الأُولى التي كان من أهم سماتها الأساسية الحياة المشتركة الكاملة؟

إن بمجرد الرجوع إلى مجموعة الوثائق الخاصة بالحياة الرهبانية المشتركة المصرية والكبادوكية لا تُعطي أبداً الانطباع بغياب مفهوم الأُبوَّة الروحية في هذا النوع من الحياة الرهبانية، بل على النقيض تماماً، ففي سِيَرِ القديس باخوميوس، يتأكد جداً مفهوم الأُبوَّة، فمؤسس حياة الشركة (المسماة باليونانية "كينوبيون") يَظْهَرُ فيها كأب لكل واحدٍ من الرهبان على حدة وأيضاً فيما يختص بالحياة المشتركة فهو أب الجماعة كلها من حيث هي جماعة (كأسرة واحدة متحابَّة ومترابطة مع بعضها البعض ومع رأسها الواحد رب العائلة). وها هو

(١٣) E. CORNELTS, Phénomène universel de la vie religieuse, dans «Lumiere et Vie», t. 19 (1970), p. 12.

تـادرس أحـد تلاميـذ أب الشـركة المقربـين وأحـد خلفائـه المباشـرين (في القيـادة الروحيـة للجماعـة) يقـول بعـد انتقـال القديـس بـاخوميوس:

[اصغـوا لي يـا إخوتـي، وتفطّنـوا جيـداً فيمـا أقولـه لكـم: إن هـذا الإنسـان الـذي نحتفـل بعمـل قـداس لذكـرى انتقالـه اليوم هـو حقـاً بعـد الله أبونـا كلّنـا. فقـد سُـرَّ الله بـه ليخلّـص بواسـطته نفوسـاً عديـدة. ونحـن أيضـاً قـد أنعـم الله علينـا بخلاصنـا بفضـل صلواتـه المقدَّسـة.](١٤)

قـد يعـترض بعـض علمـاء النقـد المعـاصرين بـأن هـذه السِيَر لم تُـدَوَّن في حيـاة القديـس بـاخوميوس ولكنهـا كُتبـت بمعرفـة تلميـذه القديـس تـادرس. ولكـن – ردًّا علـى ذلـك – فإنـه أمـر طبيعـي جـداً أن لا يذكـر القديـس بـاخوميوس نفسـه شـيئاً في موضـوع أُبوّتـه الروحيـة الخاصـة؛ بَيْـدَ أن لا شيء يـبرر إنكـار الصـورة الـتي ترسمهـا عنـه مخطوطـات السـير، والـتي تجعـل منـه أبـًا (abba) حقيقيـاً، أي أبـاً روحيـاً موهوبـاً. فـإذا توهـم البعـض(١٥) أن القديـس تـادرس قـد عـدَّل في هـذه النقطـة بعـض الشـيء في المفهـوم الباخومي **للأُبـوة الروحيـة**، فهـذا مجـرد تخمـين، لا يسندهُ دليـل.

ولكـن السِيَر تبين لنـا في نفـس الوقـت أن رئيـس ديـر الحيـاة المشـتركة يمـارس هـذه الأُبـوَّة الروحيـة وإنمـا بنمـط يختلـف بعـض الشـيء عمّـا هـو عليـه عنـد آبـاء البريـة في الحيـاة شـبه التوحديـة: فـدوره "التوجيهـي

---

(١٤) Vie copte de Saint Pachôme, citée dans L'esprit du monachisme Pachômien, Bellefontaine 1973, p. VII; voir l'ensemble des textes cités dans cet ouvrage, p. VII-XIX.

(١٥) مؤلف المقال "الأب بلاسيد" يرد هنا على بعض الآراء التي ظهرت في الغرب تدّعي أن فكرة "الأبوّة الروحية" حديثة وليست أصيلة في التقليد الكنسي الرهباني القديم.

القيادي" كرأس للجماعة أكثر ظهوراً، وهو الذي يأخذ بالأكثر مبادرة التأنيب وتصحيح الأخطاء (فردية كانت أو جماعية)، وهو واعٍ وعياً قوياً بأنه مكلّف "برعاية نفوس". ومن المعروف في الشرق بصفة عامة أن المناخ الرهباني في أديرة الشركة الباخومية كان يغلب عليه طابع النظام والمؤسسات أكثر مما كان موجوداً في برية إسقيط مصر (حيث كان النظام التوحدي هو السائد).

هناك أيضاً ملاحظات مماثلة فيما يختص بالحياة المشتركة في الرهبنة الكبادوكية. وقد بيَّنت دراسات حديثة[١٦] أن عمل القديس باسيليوس وغريغوريوس النيسي قام على أساس العودة إلى الحياة النسكية الروحية ذات المواهب الفائقة (أي القائمة على أساس القوة التي يمنحها الروح القدس للناسك الغيور فيسهِّل عليه الجهاد)، تلك التي ظهرت بصورة واضحة عند آباء الرهبنة السريانية (مار أفرآم، الشيخ الروحاني، مار إسحق). لقد وجد القديسان باسيليوس وغريغوريوس نفسيهما أمام مجموعات كان بعضها على الأقل يعيش دون رئيس ودون نظام معيَّن، لذلك فقد أتت الصيغ الأُولى لقوانين القديس باسيليوس، والتي كانت عبارة عن ردود على الأسئلة الموجهة إلى القديس باسيليوس من الجماعات التي كان يزورها، أتت وفيها انعكاس لهذا الوضع، فشخصية الرئيس لا تبرز فيها إلاّ قليلاً. أمَّا القديس غريغوريوس النيسي في رسالته عن البتولية – التي هي صدى للمحادثات مع أخيه – فنجده يركِّز بشدة على ضرورة وجود الأب الروحي. إن النُسَّاك

---

(١٦) Voir surtout. J.GRIBOMONT, le dossier des origines du messalianisme dans Epektasis, Melanges patristiques offerts au Cardinal Jean Daniélou, Paris 1972, p. 611s.

الشباب، حسب قوله: [يجب أن يهتموا قبل كل شيء بالبحث عن مرشدٍ ومعلِّم فاضل موهوب في هذا الطريق][١٧]، وهو (أي القديس غريغوريوس) يُقدِّم أخاه باسيليوس كمَن يعرفه عن قرب كمثال فاضل لمعلِّم مثل هذا: [إنك تشاهد لا شخصاً واحداً فحسب بل جوقة من القديسين مُلتفين حول هذا القائد الروحي (القديس باسيليوس) وخاضعين لتدبيره ومسترشدين بتوجيهاته، مجتهدين بأن يقتدوا بمَنْ قد مارس الفضيلة ونجح في حياة التقوى.][١٨]

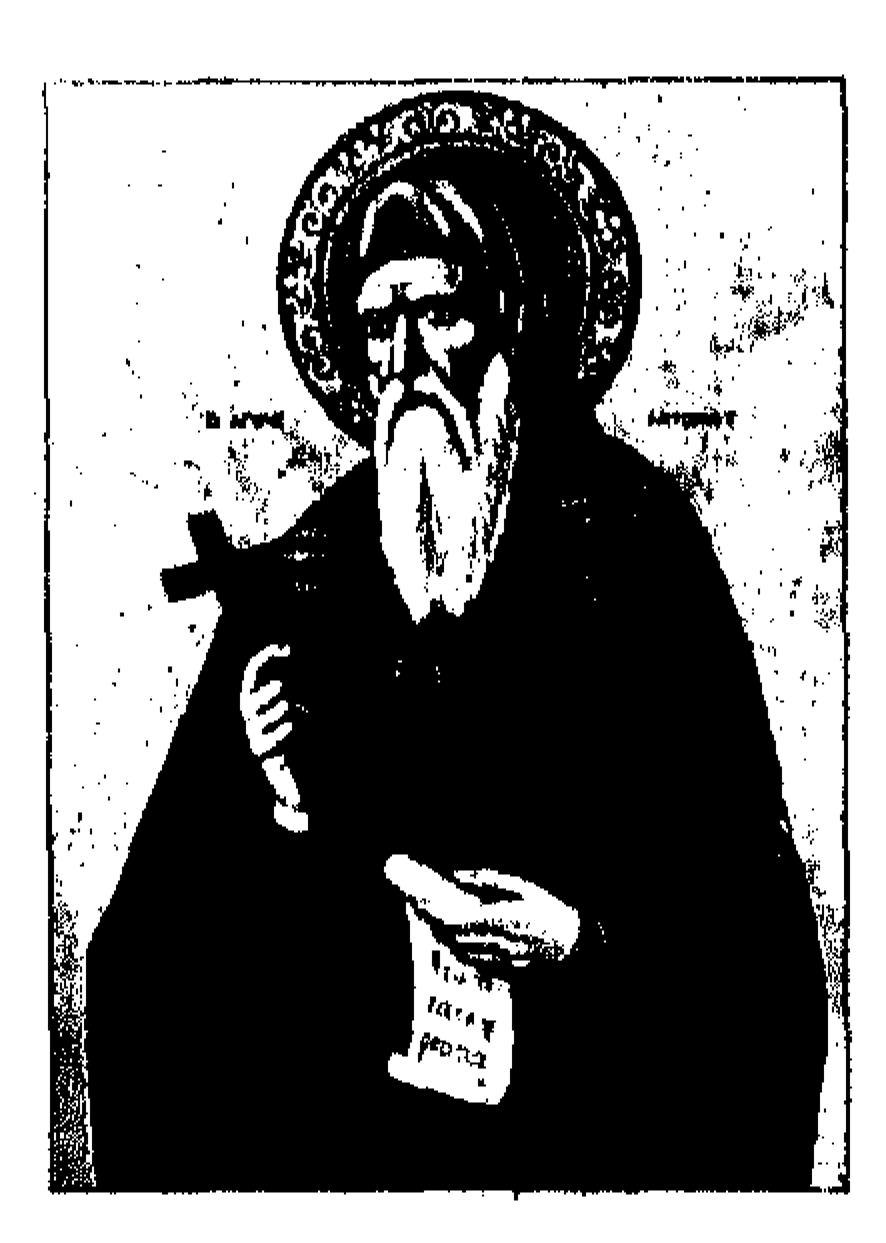
يظهر من هذا أن ما أسهمت به الحياة المشتركة الباخومية أو الباسيلية كان هو التوفيق بطريقة ناجحة جداً بين المبادىء الأساسية الأُولى للرهبنة وعلى الأخص بين مفهوم الأب الروحي وحياة الشركة الباخومية المُثلى. وفيما بعد سيسود هذا المفهوم – مع اختلافات لا بدَّ منها في التعبير – في الشرق كما في الغرب. ولكن في الغرب أدى تأثير القديس أُغسطينوس وكذلك القوانين الغربية إلى سيادة مفهوم الشركة والنظام (الضبط والربط) أكثر من بقية المبادىء الأخرى.

أمَّا في الشرق وحتى في قلب أديرة الحياة المشتركة نفسها فستظل مفهومات الراهب (المتوحد) والأب الروحي الموروثة من برية الإسقيط أكثر حيوية، وستخفف شيئاً ما من التأثير الشخصي الذي أتى به القديس باخوميوس والقديس باسيليوس.

(١٧) GREGOIRE DE NYSSE, Traité de la Virginité 23, 3; SC 119, p. 530-532.

(١٨) نفس المرجع السابق.

وحسبما شهد حديثاً أبٌ راهب معاصر(١٩): "فإنه ما زال حتى اليوم يوجد آباء روحيون، نَلْمَس فيهم روح الآباء الشيوخ القديسين القدامى؛ وإن نعمة التجديد «ها أنا أضع كل شيء جديداً» (رؤ ٢١:٥) تتجاوز هنا في هذا العالم ومن الآن التاريخ وتشير إلى الأبدية. فسواء كانوا أحياءً أم أمواتاً (سابقين أم لاحقين) فهم يشهدون لقوة القيامة العاملة فيهم. إنهم يستعلنون كرامة الإنسان الحقيقية، والنور غير المنطفىء الذي للملكوت الذي خُلِقْنا له؛ ويبيِّنون لنا أنه لا يوجد فرق بين القديم والجديد (أي بين القدامى والمحدثين) في الكنيسة جسد المسيح المُقام الذي «يجدِّد كل شيء» (رؤ ٢١:٥)".



القديس أنطونيوس الكبير

(١٩) P.Baile GONDIKAKIS, L'expérience, dans "Contacts", 27 (1975), p. 115.

الباب الثاني

الأُسس الإنجيلية للحياة الرهبانية

عند آباء البرية(*)

١ ــ التوبة والزهد في أمور الدنيا:

اصطلح التقليد الآبائي على أن يسمِّي الدخول في الحياة الرهبانية بـ "التوبة"، وفي العهد الجديد نرى أن التوبة هي المطلب الأول الذي يستلزمه إعلان بشرى الخلاص من الإنسان: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤:١٧) وكلمة "توبة" هي في اليونانية (التي كُتب بها الإنجيل) "ميطانيا"، ومضمونها يعني: تغيير شامل للكيان البشري مع مفهوم جديد للحياة. فالإنسان الجسدي عادة يحاول أن يشبع رغبة السعي وراء السعادة الحقيقية المغروسة في عمق كيانه بالخيرات المنظورة والمحسوسة في هذا العالم المادي؛ ولكن الإنجيل يأتي ويقول لنا صراحة: إن «هيئة هذا العالم ستزول» (١كو ٧:٣١)؛ وإن «الفأس قد وُضعت على أصل الشجر» (مت ٣:١٠). ولذلك، فإن كل أعمال بشرية، وكل حياة إنسانية تنحصر فيما يتعلّق بهذا العالم الحاضر ستؤول حتماً إلى الاضمحلال معه. ولكن، من جهة أخرى،

(*) للأب بلاسيد Placide Deseille عن كتابه:

L'Echelle de Jacob et la Vision de Dieu.

يعلن لنا نفس الإنجيل أن النِعَم الأبدية التي لملكوت الله والحياة الإلهية التي استُعلنت للإنسان أصبحت بالمسيح في متناول أيدينا. فالمرء إذ يستنير بكلمة الرب التي تَرنُّ في أذنيه وبالروح القدس الذي يتكلَّم في قلبه، يبلغ إلى إدراك ما في أعماقه من ألم دفين من جَرَّاء ابتعاده عن الله، فتحدوه الرغبة الحارة إلى أن يتمسَّك بالقيم الروحية ويجعلها دائماً نُصْب عينيه نبراساً يهتدي به طيلة حياته. في ضوء هذه الحياة الجديدة فإن ما كان يبدو له سابقاً حلواً يصير الآن مُرًّا وما كان لديه مُرًّا يَضْحى حلواً.

والتوبة بمعنى التخلِّي عن كل شيء تبدأ بوضوح في الابتعاد عن الخطيئة وعن كل مجال يؤدي إلى خطر الوقوع فيها. بَيْدَ أن الرب يدعونا إلى ما هو أبعد من هذا؛ فهو عندما يكشف للإنسان عن سر الخير الأسمى الذي لا يُقارَن قَدْرُه بشيء في هذا العالم المنظور والذي هو جديرٌ حقاً بأن نطلبه بكل قلوبنا، فإنه يدعونا أن نتعفَّف عن كل ما عداه، بما في ذلك حتى أكثر الأمور حلالاً، لأن هذه كلها ستصبح غير ذات بال وتفقد أهميتها في غمرة هذا الحب الأعظم الذي دعاه أن يغامر بكل شيء في سبيله.

وهكذا ينطلق الراهب في مسيرته تاركاً وراءه كل ما يملك وكل ما يحب ومَنْ يحب، معتزلاً الجميع ليحقق دعوته العليا. وهذا الترك يمثِّل دلائل قوية تعلن بوضوح عن التفوُّق المطلق للملكوت وللقوة القاهرة التي لمحبة المسيح؛ التي نتقدَّم في معرفتها واقتنائها بقدر ما نتخلَّى عن التعلُّق بأي شيء سواها. ولكن - من ناحية أخرى - هذا لا يعني أن تَرْكَنا لكل شيء سيجنِّبنا التجارب؛ ولكن على النقيض، ففي ميدان

البرية كثيراً ما يقاتل الراهب ضد "الهواجس" والوساوس التي يستثيرها إبليس في معركة هي "أشد ضراوة من الحروب المنظورة" كما يقول فيلوثاؤس السينائي[1]، إلاّ أن التخلّي الحقيقي عن كل شيء من شأنه أن يحرره من هموم كثيرة وشواغل تقسم القلب على نفسه وتُلهيه بل وتعوقه عن أن يكون واعياً لإلحاحات الروح القدس.

النذور الرهبانية تتمثّل بصفة عامة في ثلاثة نذور رئيسية: التجرُّد الاختياري الكامل من حطام الدنيا ـ العفة ـ الطاعة. وهذه بذاتها في الواقع تتميز بها بصفة خاصة كل حياة نُذرت لخدمة الله.

ولكن من الأهمية بمكان ألاّ نكتفي بهذه وحدها دون مراعاة بقية الالتزامات التي تتطلبها وتستلزمها الحياة النسكية والتي تساهم في تمهيد الطريق نحو الكمال المسيحي: الوحدة (الابتعاد عن الكل والارتباط بالواحد)، الصوم مع الزهد في كل الأمور الجسدية (لتقوية الروح على الجسد)، الصمت (عن الكلام مع الناس لنتفرغ للحديث مع الله)، حياة الصلاة الدائمة. والكتب الطقسية القديمة الخاصة بالصلوات، والوصايا التي تُتلى على طالب الرهبنة بعد تقديم النذور؛ تتضمن كل هذه العناصر وتُقدّم فيها الإرشادات الدقيقة والشروحات التوضيحية اللازمة.

ولكن، من جهة أخرى، هذه الكتب لا تُركّز على النذور وحدها وضرورة الالتزام من جهة الإنسان على وفاء كل هذه العهود، وإنما تشدِّد أيضاً وبالأكثر على حلول الله في هذه الصلوات وقبوله لهذه

---

(١) PHILOTÈE LE SINAIETE, sur la sobrieté, 1; dans GOUILARD, Petite Philocalie de la priere du coeur, Paris; 1968, p. 110.

الحياة المنذورة. فنذر الراهب حياته لله هو "سرٌّ" في حد ذاته، وطقس رسامته هو "سرائري" تُمْنَح فيه نعمة خاصة لإضرام موهبة العماد التي سبق أن نالها الراهب في طفولته، ولمساندة الإنسان في جهاده الإرادي الحر حتى يُؤتى ثمار ما ناله من هبة "سرية" في المعمودية.

٢ ـ البتولية:

لكي يتبع الراهب المشورة الإنجيلية الخاصة بالعفة نراه يحجم عن الزواج ليس لشيء في ذاته، بل لأجلٍ ملكوت الله؛ ويُلزم نفسه بحفظ فضيلة الطهارة التي هي عماد حياة التبتّل.

هذا النذر في الواقع الذي هو أكثر جدارة بالاعتبار وأشد إمعاناً في التخلّي والجحود بالذات، وهو بمثابة حجر الأساس لحياة التكريس الكامل لله، ليس هو بدافع احتقار الحقائق التي تختص بالجسد أو بسبب نفور غير سويٍّ من مواجهتها، أو لقصور القلب عن الانفتاح لحب بشري مُحَلَّلٍ. بل على النقيض، فإن مثل هذا النذر يصبح بلا قيمة في نظر الله، ولا يمكن أن يكون سَوِيًّا نفسياً، إلاّ إذا كان متأصلاً في حب أعظم يتفوق على الحب البشري العادي.

إن المتبتّل من أجل الله يتنازل عن الزواج وعن والديه بحسب الجسد، حتى يكرِّس حياته بكل كيانه للحب الإلهي بأقصى ما يمكن من التعبير والقوة لما تُعْنيه هذه الكلمة في واقعها العملي.

فالبتولية المكرَّسة لله لا تأخذ قوتها الحيوية ومعناها الحقيقي إلاّ من مُنْطَلق علاقة حب شخصية صميمية مع المسيح أشد وعياً وأقوى رسوخاً وديمومة من أي ودٍّ بشريٍّ آخر، وهذا الحب من شأنه أن يجعل

صاحبه على أتم الاستعداد والبذل لخدمة القريب بقدرة نادرة المثيل، وهذه بدورها تدعِّم البتولية وتجعلها حياة إيجابية ناشطة (لا تكفّ عن العطاء). مثل هذه الخبرة للود العميق مع الله يمكن أن تعوِّض (بالاشتراك مع الجماعة أو الكنيسة الواحدة المتحابَّة) قلة تأجُّج الحب الإلهي عند المسيحي المتزوج. بدون هذه الحياة التقوية الداخلية المتينة، تضحى عفة الراهب عُرضة للأخطار الفادحة، ولا تؤدي إلاّ إلى انكماش القلب وجفافه، فتستعيض عن فراغها بأشكال من الغيرة الاستيلائية الامتلاكية (أي التي تريد أن تستولي وتقتني)، بدلاً من أن تكون باذلة معْطائية).

بيد أنه إذا كان الدافع الأساسي للبتولية الإنجيلية هو تكريس الحياة الحقيقية للحب الإلهي وحده، فسيؤدي ذلك بالضرورة إلى تجلِّي حُبِّنا للناس.

إن الحب البشري من طبيعته أن يظل منحصراً متعلقاً بشخص معين، أو مقتصراً على مجموعة ما من البشر: في محيط الأسرة أو في طبقة ما من المجتمع أو في جماعة قومية (أبناء البلد الواحد)، طالما أنه لم يتحرر ويرْتَقِ بالنعمة ... أمَّا حفظ قلبنا لله وحده فهذا مما يؤهِّلنا إلى الشركة في ذات المحبة عينها التي بها أحب الله العالم، وفي نفس الحنان الإلهي الذي يشمل به كل كائن من مخلوقاته ...

الراهب (الذي كرَّس حياته كلها لله) ينبغي عليه أن يُعِدَّ نفسه ليكون أخاً لكل إنسان، وأن يتسع قلبه ليتلاقى فيه الجميع دون تفرقة، سِيَّما وأنه قد تخلَّص من كل الأمور التي تشده إلى الأرض ومن كل ما يتصارع الناس على امتلاكه فيها بل ومن كل علاقات عاطفية زائلة في هذه الدنيا.

أمّا الأسلحة الرئيسية التي بها يتذرع للوقوف قُبالة التجارب التي يثيرها العدو ضد العفة فهي: يقظة القلب، الصلاة، الخشوع (التواضع أمام الرب مع المخافة)، الزهد في كل ما يختص بهذا العالم والاكتفاء بالضرورات. ولكن التجربة لا تواجهنا دائماً بوجه مكشوف؛ لذا ينبغي أن نحترس جداً من الصور الخادعة المُضلّلة: فنحن قد نسعى على غير وعي منّا – كَثُرَ أو قلّ – عن تعويض العزلة القلبية التي اضطرّنا إليها نذرُنا للبتولية بأُلفة تبدو في شكل حب روحي نزيه، ولكن مثل هذا في الواقع لا يخرج عن كونه رغبة عاطفية (طفولية) في تملُّك الشخصية التي نعجب بها ونحبها والتي نراها تتوافق مع أحاسيسنا ومشاعرنا البشرية (غير الراقية).

ومن المعروف على وجه العموم وجود مثل هذه الأُلفات (غير السوية) التي تصل إلى حدّ أنها تستولي على كل تفكير الإنسان (غير الناضج) ولا تترك القلب حرًّا بل يتولّد عنها أيضاً الغيرة والحسد والشكوك.

ومن التحايلات الأكثر دهاءً أيضاً أن تكون، أحياناً، الحياة الرهبانية المشتركة نفسها نوعاً من التهرُّب من الوحدة الداخلية (والوجود مع الله)، حيث نسعى أن نخلق – ببعض من الأنظمة والأساليب التي هي نفسانية أكثر منها روحية – جواً من الانتعاش الجماعي، فيه نخلط بين المسرَّة البشرية المحضة وتلك المحبة السامية الفائقة للطبيعة. إنه يليق بنا (كرهبان) أن نضحي بشجاعة بكل العلاقات الودية العائلية حتى التي تبدو لنا أكثر شرعية لأنها تعوق – من قريب أو من بعيد – مسيرتنا الروحية وتضعف قوة فاعلية نذرنا

للبتولية. ويقيناً فإن هذا لا يعني أن نكون ذوي قلوب جافة، بل أن نبتعد بعزم وطيد عن كل ما يعكر صفو هذا الهيكل السري الداخلي (أي القلب) الذي كرّسناه ـ بنذرنا العفة ـ للرب وحده (ليكون هو الكل في الكل في حياتنا).

ولكن «مَنْ ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات، أو أباً أو أُماً أو امرأة أو أولاداً ... من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية» (مت ١٩:٢٩): "فالراهب الذي وهب حياته حبًّا في المسيح يفرح بمصاحبته له؛ ويرى نفسه محظوظاً أن يكون من زمرة أحبابه، وكلُّ غمٍّ يُقابله يتلاشى في غمرة فرحه بالرب. وعندما يتأمل بروحه طغمات ملائكة النور وجماعات القديسين، يضمحل تفكُّره في مَنْ أحبهم بحسب الجسد، إنه ينسى أباه وأُمه وإخوته، لأنه ارتبط بعهد أبدي بمحبة الآب السماوي، الذي لا نهاية لأُبوَّته، وقد صار أخاً ـ بحسب تدبير التجسُّد ـ للابن الأزلي هذا الذي لم يستحِ أن يدعونا إخوته، وقد أصبح (بالمسيح) مستأهلاً لمحبة الروح الكلي القداسة الذي يحمينا دائماً تحت ستر قداسته. وبحبه الأسنى يمنحنا نعمة التبنّي الإلهي."(٢)

٣ ـ **الفقر (التجرُّد من حطام الدنيا):**

المشورة الإنجيلية (لِمَنْ أراد حياة الكمال) هي: أن يترك فعلاً كل ما له من خيرات هذا العالم المادي ويتبع المخلِّص. وهذا ما تعنيه كلمة "الفقر" أحد النذور الرئيسية الثلاثة. ولكن بسبب أنه ليس في قدرة الإنسان أن يستغني كلِّيةً عن هذه الأمور المادية؛ لذا كانت مقتضيات

---

(٢) MARTYRIUS (SAHDONA), *Le Livre de la Perfection;* CSCO 201, p. 32-33.

الفقر أقل حتمية في عموميتها وشمولها من العفة أو البتولية المكرَّسة لله. وتطبيقه العملي يتّخذ أنماطاً تتباين أشكالها بحسب الأوساط الدينية، بل يتناسب أيضاً مع كل حالة شخصية فردية. وإنما ينبغي أن يُحْكَم تدبيره بإفراز (أي ببصيرة روحية) بما يتوافق مع الإمكانيات الخاصة بكل فرد والتي يسهل عليه تحقيقها (لبلوغ الهدف الروحي الذي يسعى إليه)؛ وإلاّ بات مثال "الفقر" في عالم الخيال مجرَّداً من الواقعية، وبالتالي مجدباً ومحفوفاً بالخطورة.

أ ـ المفهومات المتعددة لمضمون هذا النذر:

إنه يشهد بالأفضلية المطلقة التي لِنعم الملكوت على الخيرات الأرضية أيًّا كانت. لأن صاحب هذا النذر يرى أن الغِنى الحقيقي ليس هنا في عالمنا الحاضر بل هو ذلك "الكنز الذي في السماء" الذي يبتغي الراهب أن يحيا فقيراً من أجل الحصول عليه (مت ١٩:٦– ٢١).

إنه يُعبِّر عن تسليم زمام حياتنا في كل ما يختص بمعيشتنا المادية لعناية الأُبوَّة الإلهية: إن تجرُّدنا من كل الأمور المتعلِّقة بهذا العالم الحاضر (من أجل الله) من شأنه أن يوصِّلنا على وجه فعَّال إلى الحالة الداخلية التي لـ "مساكين" الكتاب المقدَّس، الذين تُوجَّه إليهم بشرى الخلاص: «طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات» (مت٥:٣). المسكين في هذا المعنى هو الإنسان المجرَّد من كل سند أرضي ومن كل نفوذ بشري، لذلك فهو مُزدَرى به من جهة الأغنياء وأصحاب الجاه في هذا العالم، فهو لا يعتمد إلاّ على الله وحده ولا يطلب إلاّ معونته في كل شيء، وإذ هو متحرِّرٌ من هموم الغد المقلقة، يقدر أن ينشغل تماماً ودون انقسام في السعي وراء الله.

ترك مقتنيات الأرض من أجل الله يؤكّد أيضاً التبعية المطلقة بدافع المحبة لمسيح بيت لحم الفقير المعوز (الذي لم يجد موضعاً ليولَد فيه إلاّ مذود البهائم)، والذي عاش فقيراً طيلة حياته العامة حتى الجلجثة:

+ «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأمَّا ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.» (مت ٨: ٢٠)

أمَّا من جهة محبة القريب فلهذا "النذر" قيمة ودلالة عملية. فتلميذ المسيح الذي يتخلّى عن ممتلكاته، إنما يفعل ذلك لكي يعطي أثمانها للفقراء، لأن عمل الصدقة قرين ملازم لهذه الوصية الإنجيلية: «بيعوا أمتعتكم واعطوا صدقة ...»؛ «بع كل ما لك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعالَ اتبعني ...» (لو ١٢: ٣٣؛ ١٨: ٢٢). ثم أن حياة الفقر التي يمارسها الرهبان دائماً والتي لا تسمح لهم بأن يقتنوا ما يزيد عن حاجتهم الضرورية تعطيهم فرصة لمحبة القريب عن طريق إعطاء المحتاجين الفائض من ثمار عمل أيديهم. وفي حياة الرهبنة المشتركة (أي داخل الأديرة) حيث لا ملكية خاصة لشيء، فإنه يمكن للرهبان أن يحققوا المثال الرسولي للمحبة الأخوية التي للجماعة المسيحية الأولى، هذا المثال الذي بدأ في أُورشليم حيث «كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة؛ ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً.» (أع ٤: ٣٢)

ب ـ المعاني الروحية للممارسة اليومية لعدم القِنْيَة في الرهبنة المشتركة:

المبدأ المتّبع أساساً في حياة الشركة الرهبانية أنه ليس لأحدٍ فيها ملكية خاصة لشيء، بل كل ما هو في حوزة الجماعة هو مُشَاع بين الإخوة. هذا التخلّي عن القنية ليس فقط عُرْفاً مألوفاً يتعهَّد به الراهب

يوم دخوله الدير وتقديمه رسمياً نذوره (الثلاثة)؛ بل هو مَطْلَبٌ يومي مُلازم لحياتنا. وهكذا يحرص الراهب بكل دقة متناهية ألاَّ يطلب مسرته في امتلاك أيِّ شيء كان بوجه ما أو بآخر، ينفرد به دون إخوته، ويخلُّ بنظام الحياة الرهبانية الجماعية الذي تعهد منذ البداية أن يلتزم بكل فروضها وآداب سلوكها. ومن هذه على سبيل المثال ألاَّ يأخذ ــ كتباً أو أدوات عمل ... إلخ ــ دون أن يستسمح الموكول إلى عهدتهم مثل هذه المسئوليات؛ ثم عليه أن يعيدها إلى مكانها بعد استخدامها نظيفة وفي حالة جيدة؛ وأن يعتني بكل شيء "كأوان مقدَّسة مكرَّسة لمائدة الرب"(٣) لأنها في الواقع تخص بيت الله ... إنه من اللائق بنا للغاية أن نتجرَّد تماماً من أنانيتنا وألاَّ نملأ فراغ قلبنا إلاَّ بحب المسيح.

ثم لا ينبغي أن نستعمل أي منافع مادية إلاَّ بمشورة الأب الروحي للدير ومَنْ فوَّضهم هو ليكونوا معاونيه. وهذه خاصيِّة الإنسان الفقير أن يكون معتمداً دائماً على الآخرين (من جهة قوام حياته المادية). ففي الحياة الرهبانية (الديرية) فإن كل احترام وخضوع لأولياء الأمر (أي المدبِّرين) هو في الواقع طريق سويٌّ لترويضنا وتدريبنا على الطاعة البنوية الودودة وتسليم الحياة بالكامل لرعاية الآب السماوي. إنه من الطبيعي أن يتسبَّب عن هذا الخضوع في بادىء الأمر بعض الضيق والحرمانات؛ ولكنه يؤدي حتماً إلى فرح روحي عميق وإلى حرية نفس حقيقية.

---

(٣) S. BASILE, *Règles Brèves,* 143-144; PG 31, 1178 BC; S. CASSIEN, *Institutions,* IV, 19-20; SC 109, p. 149.

هذا التخلّي (اليومي) عن الاهتمام بالأمور المادية التي تتعلّق بحياتنا لا يكمل إلاّ إذا كان لنا ثقة تامة في أن المسئولين عن رعايتنا هم مدركون تماماً لاحتياجاتنا: سيّما عندما تدفعهم طوارىء الحياة اليومية العادية أن يهبُّوا لمساعدتنا (في مرض أو إعياء أو معاناة من أي نوع ...). في هذه الأحوال يجب أن نكشف لهم عن متاعبنا ببساطة وهدوء، دون أن نلوم أحداً، أو نتذمر على شيء، ثم علينا أن نعمل بما يشيرون علينا به دون مراجعة. ولكن في الوقت نفسه لا يجوز أخذ أو إعطاء شيء إلاّ بعد أخذ مشورة الأب الروحي؛ والعمل بحسب توجيهاته بدقة على أن نتجنّب تماماً الالتجاء إلى سخاء الأقرباء أو الأصدقاء لنحصل منهم على أشياء لاستعمالنا الخاص مهما كنّا في شديد الحاجة إليها، إذا لم نقدر أن نجدها في حوزة المسئولين عنّا في الدير.

نهاية الأمر، ينبغي للراهب أن يكتفي بالقليل وأن يسلك كإنسان قد زهد في كل التنعمات الأرضية (ويرنو للحياة الفُضلى). إنه يليق به دائماً أن يفضِّل القليل (من الضروريات) عن الكثير، وأن يفرح عندما يكون في عَوَز إلى شيء ما ولا يجده، وأن يتقبَّل كل شيء مهما كان زهيداً بشكر كما من يد الله، دون أن يتطلَّبه كحق.

يقول القديس كاسيان وهو يصف آباء البرية المصريين:

[إنهم يحيون على التجرُّد التام من كل شيء ما خلا الثوب الزهيد الذي يستر جسدهم، وغطاءً خفيفاً للرأس والكتفين، ونعلاً بدائياً من الجلد، وحصيرة و "حِراماً" (من صوف الغنم أو شعر الماعز)، وما عدا ذلك ما كانوا يقتنون شيئاً على الإطلاق.][٤]

S. CASSIEN, *Institutions*, IV, 13; SC 109, p. 137. (٤)

قال أحد شيوخ البرية:

[إذا كان الراهب عمَّالاً (مجاهداً في الصلاة) فالله يتطلب منه ألاَّ يكون منشغلاً بأي شيء مادي ولو كان إبرة صغيرة، لأن ذلك يمكن أن يعوِّق ذهنه عن الاهتمام بالمناجاة مع الرب يسوع ومن التوبة الخاشعة أمامه.](٥)

وترك لنا أبٌ آخر هذه الخبرة الروحية (لحياته النسكية):

[الإنسان الذي تذوَّق حلاوة عدم القنية يستثقل حتى الثوب الذي يلبسه ووعاء الماء الذي يشرب منه، لأن روحه منذ الآن قد صار هَمُّها كله في ما هو فوق.](٦)

إذاً، هؤلاء الرهبان الذين تمسكنوا حقيقة من أجل المسيح، وتركوا كل شيء حبًّا في تكريس الحياة كلها له يجاهدون قدر طاقتهم أن يقللوا من حاجاتهم المادية، مكتفين بأبسط الأشياء وأزهدها قيمة. فهم يستغنون بملء إرادتهم عن المُسَهِّلات العصرية للحياة، لا انعطافاً نحو الأخذ بعادات الأقدمين، أو احتقاراً لأساليب المُحْدَثين، ولكن لكي يقدروا أن يعيشوا بأقل النفقات، وفي أشد وَحْدة وخلوة (مع الله) ولكي يبلغوا بأكثر سهولة إلى أن يكونوا «مساكين بالروح». بل حتى أماكن سكناهم ينبغي أن تكون دائماً متّسمة بالبساطة والمسكنة: «ما دمنا متغربين في هذا العالم ومجنّدين مؤقتاً نحارب على أرضٍ ليست لنا فلا ينبغي أن نبني لأنفسنا مقرًّا دائماً بل خياماً وقتية. فنحن مدعوون ومُلْزَمون بأن نهجر هذا العالم سريعاً لكي نرحل إلى مسقط

(٥) Apophtegmes, N° 577; REGNAULT, p. 108.

(٦) ID. N. 578; ibid., p. 109.

رأسنا وموطننا الأبدي. فنحن هنا نزلاء نقطن إلى حين كما في معسكر جنود يحاربون في أرض غريبة ويتوقون بفارغ الصبر أن ينتهوا من المعركة حتى يعودوا بسلام إلى مدينتهم الحقيقية.»(٧)

ولكن على أي حال يجب أن تكون المسكنة الرهبانية أساساً مُعَبِّرةً عن حالة داخلية (أي أن تكون من القلب) أكثر منها نظاماً اقتصادياً اجتماعياً. فالتجرُّد والتخلِّي عن الأشياء الظاهرية والمعيشة بأزهد النفقات لا يعني دائماً أنه تعبير عن روح الفقر. فقد يكون شيء ما بخس الثمن ولكن له شكل مبهر، أنيق، ومع كونه تافهاً إلاَّ أنه قد يتنافى مع روح المسكنة، بينما قد يكون شيء مماثل أثمن قيمة، ولكن أكثر بساطة يؤدي نفس الغرض ولا يعوِّق الراهب عن البلوغ إلى ما تصبو إليه نفسه من مسكنةٍ حقيقية.

كذلك يتوافق روح الفقر الإنجيلي مع تذوُّق حر عفيف للمسة الجمال التي أبدعها الله في الخليقة والكون، أفضل مما هو مع العقلية المنغلقة التي تمارس الفضائل لمجرد المنفعة الذاتية. وأخيراً: إن ما يناقض المسكنة الإنجيلية هو اشتهاء ما للغير والسعي للبيع بأعلى قيمة، وفي الشراء المساومة في ثمن ما يُشترى ليكون بأقل ما يمكن.

٤ ـ الاتضاع والطاعة:

الاتضاع (بمعنى الخضوع والتسليم التام لله مع التخشُّع) هو السمة الأساسية التي يتميز بها المسيحي. كل شيء صالح يستمده من خلاله، وهو يسد نقصان كل فضيلة أو موهبة:

---

(٧) GUILAUME DE SAINT THIERRY, Letter d'or, n° 151; trad. DECHANET, p. 95.

[كـل الأعمـال الفاضلـة لا قيمـة لهـا بـدون الاتضـاع ... وفي الاتضاع ولو بدون أعمال حسنة توجد كل فضيلة. إنـه (أي الاتضاع) ملح كل عمل (روحي) في الحياة؛ بدون ملح يصير مذاق كل شيء ماسخاً وبلا طعم.][8]

فكل مَنْ أراد أن يحيا بحسب الإنجيل فعليه أن يبلغ أكثر فأكثر إلى معنى المسكنة الحقيقية وأن يخضع من أعماقه لكل متطلباته، وأن يدرك فداحة آثامه أمام جلالة وقداسة الله؛ وأنه يليق به أن يقتنع تماماً أنه لا ينبغي أن يفتخر بشيء من الصلاح فيه يمكنه أن يُعْزيه إلى نفسه. وفي علاقته مع الآخرين ينبغي له أيضاً بالمثل أن يتخلَّى عن تفضيل نفسه عنهم في أي شيء، وأن يتجنَّب كل رغبة في فرض آرائه، أو مزاجه أو ميوله الخاصة عليهم؛ وأن يحسب نفسه آخر الكل وخادمهم.

ولكن لكي يصل المرء إلى اتضاع القلب الحقيقي لا يكفي أن يحياه داخلياً فقط، أو أن يُصرِّح علانية بأنه غير جدير (بهذا العمل أو تلك الكرامة)؛ بل عليه أن يجسِّده في السلوك المسيحي اللائق.

بالطاعة للأب الروحي ولمعاونيه في التدبير الرهباني، يتخلَّى الراهب عن ميوله الذاتية وعن التصرف من نفسه حتى في نطاق الأمور المشروعة التي يمكن للإنسان أن يؤديها على أحسن ما يكون. إنه يمتنع أن يسلك بحسب وجهات نظره الخاصة، وأن يتبع مشيئاته الشخصية ولو أنها كانت لا تنطوي على أي نوع من العيب، ليذعن لإرادة آخر (الأب الروحي أو الإخوة)؛ إنه يقبل بكل رضى أن يضع جانباً رأيه

YOUSSEF BOUSNAYA, cité dans L'Evangile au désert, p. 243. (٨)

هـو، ليخضع بحب متضع لحكم الآخرين، دونما فحص أو استفسار، لأن القيم الإيمانية والأخلاقية لا ينبغي أن توضع تحت بحث العقل المنطقي:

[الطاعة وليدة الاتضاع كما يقول الرسول المغبوط عن ربنا يسوع المسيح: إنه وضع نفسه وأطاع حتى الموت (في ٢:٨). فكما أنه بمعصية آدم دخل الموت والخطية في الجنس البشري، فكذلك الطاعة الحقيقية تُعِدُّ لِمَنْ يقتنيها كل المحاسن والتنعمات الروحية.][٩]

(القديس فيلوكسينوس المنبجي)

[مَنْ يريد أن يكون راهباً لا ينبغي على الإطلاق أن يكون له إرادة خاصة في أي شيءٍ كان. فهذا ما علّمه لنا الرب يسوع قائلاً: «ما أتيت إلى العالم لأعمل مشيئتي» (يو ٦:٣٨).][١٠]

(القديس برصنوفيوس)

فالطاعة الرهبانية ليست مجرد فضيلة اجتماعية قُصِدَ بها أن ترقى بنا إلى حُسن العلاقة العامة بخضوع الكل للسلطة الشرعية القائمة. وإنما هي تهدف أيضاً إلى ما هو أعمق وهو تقويم النفس (لتتخلّص من الأنانية وحب الذات). ولأن كل شيء في حياة الراهب، وُضِع بحكمة ليقوده أخيراً إلى اقتناء كمال المحبة، فمن الطبيعي حتى في تفاصيل

---

(٩) PHILOXÈNE DE MABBOUG, Lettre à un supérieure sur la vie monastique, dans L'Orient Syrien, 1962.

(١٠) S. JEAN DE GAZA, dans BARSANUPHE et JEAN DE GAZA, correspondance, trad. L. REGNAULT, Solesmes, 1971, p. 288.

مَجْرى الحياة اليومية العادية (الأكل والنوم والمَلْبَس والعمل ...) ألاَّ يعول التلميذ همَّ نفسه في شيء منها البتة بل عليه أن يتبع بطاعة تامة مشورات المعلِّم الروحي المختبر، الذي وُهِبَ قوة التمييز على أن يعرف مشيئة الله من جهته، وهكذا يُذعن له في كل الأمور كما للمسيح.

ومع ذلك، فإن لم يكن للطاعة دور آخر سوى تقويم السلوك، فإن الراهب يمكنه عن طريقها أن يتحرر من ذاته بالقدر الذي يبلغ به إلى قامة روحية، يصبح معها متأهلاً أن ينقاد بالنور الداخلي الذي يستقبله من الروح القدس. هذا كان إلى حدٍّ ما هو حال المتوحدين الذين كانوا يغادرون الدير ليحيوا على انفراد في عزلة تامة عن الناس وفي وحدة كاملة مع الله، بعد تمرُّس طويل وخبرة كافية للتأكُّد من صحة دعوتهم وسماع صوت الله.

ولكن بسبب أن الطاعة هي السمة العملية المميزة للاتضاع الداخلي الكامل، والاستعداد الباطني العميق لإهلاك ونسيان الذات اقتداءً بالرب، لذا رأى المعلِّمون الروحيون للحياة الرهبانية المشتركة أنه من النافع جداً، ليس فقط أن يعبروا أن الطاعة هي حجر الزاوية في بناء الحياة الروحية للمبتدىء، بل وأيضاً سند لحفظ اتضاع الراهب طيلة حياته لا في خضوعه فحسب لرؤسائه، ولكن أيضاً لإخوته. هذه السمة الصميمية الشاملة للطاعة تحمل أهمية كبيرة. وتؤكِّد على أصالتها وفحواها الإنجيلية. والقديس بِنِدِكْت (الذي أخذ نظامه الرهباني عن آباء البرية المصرية). "ينصح رهبانه ليس فقط أن يطيعوا رؤساءهم بل وأيضاً أن يتبادلوا الطاعة لبعضهم البعض كإخوة

متحـابين."[11]

والقديس فيلوكسـينوس المنبجي قـد أبـدى هـذه الملاحظـة الثاقبـة:

[لا تعتبر مهانـة أن يـأتيك أمـرٌ مـن أخٍ دونـك لئـلا تُظهـر أنـك تخضـع لسـيادة بشرية وليس للمسيح؛ قـدِّم الطاعـة لـوليِّ الأمـر مـن أجـل الله (الـذي منحـه السـيادة) واخْضَـعْ لأخيـك الأقـل (أو الأصغر) منـك لأنـك ينبغي أن تـرى المسيح فيـه.][12]

(القديس فيلوكسينوس)

فالطاعـة إذا كـانت لـلرئيس وحـده وليـس لـلأخ دلّـت علـى أن الدافـع لهـا هـو الخـوف مـن صـاحب السـلطة أو الرغبـة في إرضائـه أكـثر منـه خشوع القلـب ومخافـة الـرب.

الطاعـة في الحيـاة الرهبانيـة ليسـت هـي مجـرد خضـوع طفـولي لأوامـر الكبـار؛ ولا هـي تـأتي بدافـع الاسـتعفاء مـن المسـئولية (وإلقائهـا علـى مُعطي الأمـر)؛ ولا هـي تتـم بسـبب ضعـف شـخصية المطيـع؛ أو مَيْـلاً لمرضـاة النـاس. إن الطاعـة في واقـع الأمـر تقـترن بـأعلى مستوى مـن الحريـة الروحيـة، لأن التخلّـي الحـرَّ عـن المشيئة الذاتيـة إنمـا يشـهد حتمـاً بـالتفوّق المطلـق للحريـة الداخليـة لنفـس توافقـت تمامـاً وفي كـل أمـرٍ مـع المشـيئة الإلهيـة، علـى أي شـكل آخـر مـن الحريـة البشـرية المجـرَّدة. الراهـب لا يخضـع لقسرٍ خارجي رغماً عنـه، إنمـا هـو يذعـن للآخـر بسـهولة وتلقائيـة المحبـة.

كمـال المحبـة يتطلـب أيضـاً ألاّ يكـون لـدى المـرء مبالغـة في مفهـوم

---

(11) S. BENOIT, Règle, ch. 71.

(12) PHILOXÈNE DE MABBOUG, Lettre à un de ses disciples, 15; dans L'Orient Syrien, 1961, p. 249.

تطبيقهـا المـادي أو الآلي (بـدون وعـي روحـي لمـا تعنيـه). لأنـه مـن المعروف أن الأب الروحـي في تدريبـه للراهب على الطاعـة إنمـا يُعَلِّمـه أن يتخلّـى عـن إرادتـه الخاصـة ليمسـك تمامـاً بمشيئة الله في كـل شـيء؛ وبالتـالي إذا كـان هنـاك أمـر لم يُوضَّح بطريقـة باتـة وقاطعـة تمامـاً، فمـن الصـواب ومـن الأفضـل في أغلـب الأحيـان أن يَعْرِض الراهـب علـى الأب الروحـي فكـره بعـد أن يصلّـي، ليكـون علـى استعداد لأن ينصـت لـلروح القـدس عمّـا يعتقـد هـو نفسـه أنـه الأفضـل (في تنفيـذ الأمـر). المطيـع الحقيقـي يتجـاوب مـع الأمـر بوعيـه الشـخصي الكـامل ويعـبِّر عـن ذلـك بصراحـة إذا دعـت الضـرورة، دونمـا خـوف مـن عـدم الاستحسـان؛ يقـول لنـا أحـد آبـاء البريـة: "عندمـا تتكلّـم، تكلّـم كإنسـان حـر وليـس كعبـدٍ رقيـق."(١٣)

ولكـن لا ينبغـي لِمَنْ هـو تحـت الطاعـة أن يتشـبث بآرائـه الخاصـة ولا يحـاول أن يفرضهـا بأسلوب الضغـط النفسـي لا مـن قريـب ولا مـن بعيـد؛ بـل عليـه أن يتخلّـى تمامـاً ببسـاطة وبـلا تصنّـع، إذا مـا قـرر صـاحب الأمـر شيئاً يخـالف مـا يـراه هـو، متجنبـاً علـى الإطـلاق التذمُّـر والنقـد السـلبي والجـدال العقلـي، هـذه الـتي لا تتمشّـى أبـداً مـع كمـال النضـوج الإنسـاني الحقيقـي والحريـة الروحيـة.

إذا مـا أُعطـي لنـا أمـر سـواء كـان يتوافـق أو لا يتوافـق مـع رغباتنـا، ينبغـي علينـا أيضـاً أن نبـادر بكـل مـا عندنـا مـن بصيرة وبديهـة إلى تنفيـذه علـى أحسـن مـا يكـون بـروح التخلّـي الكـامل عـن آرائنـا ومعرفتنـا

---

(١٣) Apophtégmes, Martin de Dumio, 95; dans *L'Evangile au désert,* p. 125.

الشخصية.

مَنْ أمسك بالطاعة السويَّة الناضجة يعرف كيف يتخلَّى بسهولة عن عمل ما يراه هو بحسب الواقع الأفضل، وذلك من أجل محبته واحترامه للآخر سواء كان هذا الآخر هو أباه الروحي أو أخاه المسؤول معه في العمل المطلوب أداؤه، إذ لا يمكنه أن يُقْدِم على أي أمرٍ كان فيه معصية واضحة لرئيسه أو لأخيه الموكول إليه مهمة تدبير العمل. وفي الحقيقة نجده يخضع (بوعي كامل) لكل الأمور التي يرى أن الله يسمح بها ويدبرها بعنايته المنزهة عن الخطأ والتي تعمل لتكميل مقاصده الإلهية، مستخدمة أضعف الوسائط البشرية وأوهن الأشياء المخلوقة.

الله شاء أن يقود العالم للخلاص الأبدي لا بطرق تتوافق مع العقل الإنساني، ولكن بطاعة المسيح، بانكسار وعار الصليب. والراهب المطيع بتقديم خضوعه حتى لأمر يبدو له جائراً أو مغلوطاً إنما يعبِّر بذلك عن جحده لذاته وحبه الصميمي للمسيح المصلوب. وبهذا يمكنه بتنفيذه الأمر الصادر إليه أن يدخل إلى فكر المسيح ويفهم معنى الصليب.

ولكن من جهة أخرى ينبغي أن نتجنَّب، فيما يختص بالممارسات ومراعاة القوانين الرهبانية، إرجاع ذلك إلى مجرد الطاعة وحدها أو الطاعة العمياء (غير الواعية). إنه لا يلزم أن نتمهَّل لكي نفهم حتى نطيع؛ ولكن يجب أيضاً في الوقت نفسه أن نحاول بقدر الإمكان أن ندرك معنى المطلوب منا. وعلى سبيل المثال نحن لا نخضع لتعليمات الصلاة الليتورجية لمجرد أنها مراسيم مفروضة، ولكننا نجتهد أن نعرف

كيف أنها مدلولات خارجية مُعبِّرة عن حالة الاستعداد الداخلي من خشوع قلبي وعبادة بالروح أو يقظة تأملية (في مجرد الوقوف الصامت في الحضرة الإلهية). وهكذا مع سائر المبادىء الرهبانية الأخرى ينبغي أن نمارسها شخصياً أولاً (دون نقاش)، ولكن علينا بعدئذٍ أن نتعمَّق معناها وما تهدف إليه: مثل الفقر (الاختياري)، المحبة الأخوية العملية ... إلخ، هذه هي (الحياة) التي سلكها آباء البرية الأوائل ثم سلَّموها لأبنائهم حتى آلت إلينا (تراثاً روحياً حيًّا).

ولكن مع كل هذه الأهمية التي أعطيناها للطاعة في الحياة الرهبانية (سواء للأب الروحي أو للمدبِّرين أو للإخوة)، إلاَّ أن ذلك لا يمكن بأي حال أن يقوم بديلاً عن شكلٍ آخر من الطاعة أكثر عمقاً وأشدَّ أثراً في بناء الحياة الروحية الشخصية، إذ هو الأساس للسلوك المسيحي السويِّ، وأعني بها **طاعة الروح القدس** بالإذعان لإيحاءاته (أي تنبيهاته) الداخلية. فطالما يحدث على مدى النهار للراهب ذي الوعي القلبي المُمحَّص والمرهَف أن يحس أن الله يطلب منه أن يتخلَّى عن الرغبة في شيء ما وأن يكتفي بأقل الأمور الضرورية، أو عن مَيْلٍ ما لحب استطلاع، أو عن كلمة ما تجره إلى حديث غير نافع (وقد يكون هدَّاماً لنفسه وللآخرين) ... هذا الانقياد الدائم للروح القدس إذا وعيناه وثابرنا عليه بحق فلن يستحيل أبداً إلى شك أو إلى تردُّد الضمير أو إلى ضيق أُفق في الذهن – كما قد يظن البعض – بل على النقيض سيجعل النفس حرَّة طليقة والقلب رحباً ومنشرحاً بفرح المحبة الإلهية الغامرة.

٥ ـ التوحُّد والسكون:

الانفكاك من العالم والانعزال الفعلي عنه هو إحدى السمات الأساسية في الحياة الرهبانية، يقول القديس باسيليوس: "الراهب الحقيقي الذي يحب الله يهجر كل شيء ويختلي بنفسه مع الله."(١٤)

أول صورة لهذا الانعزال عن العالم يسميها التقليد الرهباني القديم "الهجرة الإرادية" أو "الغُربة" (Xéniteia Peregrinatio). لقد دعا الروح القدس بصفة استثنائية بعض الرهبان أن يمارسوا حرفياً هذا النمط من الحياة النسكية، وهو أن يتخلّوا عن أن يكون لهم سكن ثابت في مكان معين؛ بل أن يكون تعبُّدهم لله وهم في ترحال دائم. هؤلاء هم الرهبان ـ السُّوَّاح (السائحون في البراري المنعزلة والقفار يتنقّلون من موضع إلى آخر). ولكن الراهب بصفة عامة هو سائح على مثال أب الآباء إبراهيم وكالعبرانيين في البرية، قد تخلّى بطريقة واقعية حاسمة عن أن يمتلك لنفسه شيئاً أرضياً خاصاً به، لأن وطنه الحقيقي الوحيد هو السماء (المكني عنها في لغة الكتاب المقدّس بـ «أورشليم العليا») الذي يبدأ سر ملامحها منذ الآن هنا على الأرض ولكن في عمق قلبه حيث يكون حلول الرب.

المتوحد قد تنازل عن كل مِلْكيّة وعن كل العلاقات التي تشده للأرض ليضع في اعتباره دائماً أن يحيا في حالة "عبور" ـ وهذا هو المفهوم التقليدي لكلمة "فصح ـ بصخة" أنه العبور من العالم إلى أرض الموعد الحقيقية. إنه يليق به أن يكون واعياً بألاّ يؤسس لنفسه

---

(١٤) - S. BASILE, *Lettre, II, 4;* trad. Y. COURTONNE, (Les Belles Lettres) tome I, p. 10.

من جديد بالدير مسكناً بشرياً خاصاً. ولكن مراعاة للمحبة الأخوية واحتفاظاً بروح الشركة الرهبانية عليه أن يحتفظ دائماً بشيء عنده من أجل إكرام ضيف غريب يلجأ إليه (لأن المتوحدين كانوا يسكنون في مغارات تتباعد مسافات طويلة عن الدير). فقد يمرُّ به عابر سبيل أو يزوره أحد الإخوة، ولكن في الوقت نفسه ينبغي أن يحترس من انحلال السيرة (أي عدم ضبط النسك) والاتساع في المعيشة، بأن لا ينشغل بما لا يعنيه، وألاّ يطلب لنفسه شيئاً ما ولا يتصرف في شيء (كآلة أو إناء ...) كأنه يمتلكه:

[سأل أخٌ (راهب) الأبّا أغاثون: "أريد أن أُقيم مع إخوة؛ فقُلْ لي بأي أسلوب أحيا معهم؟" أجاب الشيخ: "أقِمْ معهم على الحال التي كنتَ عليها أول يوم دخولك إليهم؛ ابقَ كل أيام حياتك وكأنك سائح ضيف عليهم حتى لا تتطرَّف البتة في الحرية (أي الدالة) معهم".][١٥]

[سأل أخ (راهب) الأبّا شيشوي: "ما هي السِمَة المميزة للسائح الغريب يا أبي؟" أجاب الشيخ: "يُمسك عن الكلام (فلا يتحدث مع أحد إلاّ للضرورة) ولا ينشغل (في مسيرته) بأمر لا يعنيه حيثما وُجد، هذه هي سجايا السائح الحقيقي".][١٦]

فالانعزال عن العالم يقتضي أن يحيا الراهب في خلوة بعيدة عن الناس، متجنباً الانهماك بأمور الحياة الدنيوية، حتى ينعم بهذا الهدوء الخارجي الذي يمهِّد أمامه الطريق لهدوء الفكر وسكينة القلب.

---

(١٥) Apophtégmes, Agathon, I; GUY p. 44.

(١٦) Apophtégmes, Série Systematique, 15, 43; DION, p. 222.

ولكن هناك درجات مُتباينة في هذا الانعزال عن العالم تتوقف على الدعوة الخصوصية لكل راهب وبالأخص درجة تقدمه الروحي. فإن المثابرة بصفة دائمة على وَحْدَة جادة قوية بقدر كافٍ لا يتناسب إلاَّ مع حياة روحية ناضجة سائرة قُدُماً في طريق الصلاة الدائمة وعلى وجه أخص التأملية منها. العزلة عن الناس للمبتدىء (في الرهبنة) كان لها قصب السبق والأهمية الأولى (لأنها أحد مقومات حياته التي كرَّسها لله وحده عندما خرج من العالم)، ولكن بشرط أن يتخلَّى عن مشيئته الخاصة، وبالأخص عن الانغماس في العِشْرة الأخوية (في الدير) ـ هذا سيكون له دور أيضاً أشد أهمية. بعض الرهبان قد يكتفون بالعزلة والتوحد داخل الدير بالقرب من المدن، وآخرون يفضِّلون الانفراد في "البرية" لأنها أكثر هدوءاً وبُعداً عن الناس.

البرية هي المكان الذي فيه يعلن الله أسراره للنفس: «لأني سأقودها إلى البرية وهناك أتكلَّم في قلبها» كما يقول الرب لهوشع (هو ٢: ١٤ حسب النص المترجم). لكن كما تُشير خبرة إسرائيل في البرية وقت "الخروج" وكذلك تجربة المسيح الثلاثية قبل بدء كرازته العامة، نجد أن البرية هي أيضاً ميدان الحرب الروحية الأشد ضراوة. يقيناً إن الاختلاء في عزلة تامة يقي الراهب من التجارب المتولدة من عدوى روح العالم ومن مجابهة الأمور التي تنبِّه فينا الميول الخاطئة. ولكن، كُلما استطاع الراهب أن يفرَّ ممَّا قد يثير فيه ميلاً خاطئاً بقدر ما تقل فرص الخطية كالانهماك في الأمور الحسية أيًّا كانت، وعدم مراعاة المطالب الإلهية، وكذلك رغبات الأمور الدنيوية العديدة التي يموج بها القلب والتي لا تكف أن تشدنا خارج أنفسنا وتلهينا عمَّا هو جوهريٌّ

في حياتنا.

أمَّا الاعتزال عن العالم (وإغراءاته الكثيرة) فإنه يعطي الإنسان فرصة أن يكون منتبهاً لنفسه. بيد أنَّ أول ما يجده الراهب في البرية ليس هو الراحة والسكينة في الله، وإنما المصارعة مع الأعداء غير المنظورين. حينئذ تنكشف النوازع الشريرة داخله في شكل خواطر وأفكار، وكذلك كل الميول الفاسدة التي كان يحملها في نفسه دون أن ينتبه لها. هذا الكشف هو نافع للغاية لأنه يجعل الجهاد كفيلاً بأن يخرجنا من التيه المميت؛ بل وفي الوقت نفسه تصبح النفس أشد يقظة ووعياً بالأوامر الإلهية ولإلهامات الروح القدس الداخلية التي تسهل عليه تتميمها وتمكِّنه من مقاومة الإغراءات المضادة والانتصار عليها.

يقول القديس أموناس:

[منذ المعصية (لوصية الله التي وقع فيها أبوانا الأولان) والنفس لا تعرف الله كما ينبغي إلاَّ إذا ابتعدت عن الناس وكل ما يلهيها (عن خلاصها). لأنها سترى بعينيها الحرب التي يشنها عليها أولئك الذين يقومون ضدها، فإذا صدَّت هجماتهم التي يباغتونها بها وفازت عليهم، فإن روح الله سيسكن فيها، وكل معاناتها ستتحوَّل إلى فرح وبهجة.][١٧]

ولكي تؤتي الخلوة ثمارها، ولا سيما عندما تكون في عيشة مشتركة مع إخوة آخرين، يجب أن تكون مصحوبة بممارسة الصمت، فعن طريقه سَيُعِدُّ الراهب لنفسه قلاية في أعماق قلبه، حتى ولو وُجِدَ بين

AMMONAS, Lettre I; Patrologie Orientale, X, 4, p. 432. (١٧)

عدد كبير من رفقائه أو أُناس آخرين.

الصمت في الأساس هو تدريب تهذيبي، على الراهب أن يُلزم نفسه به. ولا يُقْصَدُ به عدم الإرادة في الإفصاح والتعبير عمّا يدور في الذهن أو يتحرك في القلب، إنما هو ضبط استخدام الكلام: إذ نتلافى كل ما يشتت الذهن، وكل ما يجرح المحبة، وكل ما يدفعنا إلى التباهي في الكلام، أي أن نصمت ونستمع بدلاً من أن نتكلّم. يجب أن يصبح السكون لازمة داخلية عميقة، لا غِنى للقلب عنها.

يقول القديس إسحق السرياني:

[حِبْ السكون أفضل من كل شيء؛ لأنه يأتي بثمار يعجز اللسان عن وصفها. في البداية نحن أنفسنا نتحاشى الصمت؛ ثم بالصمت يُولد فينا إحساس يشدنا أكثر إلى الصمت. ليت الرب يعطيك هذا الإحساس المتولد من السكون! ثم بعد ذلك تتولّد في القلب عذوبة، وبالتدريب على هذا المنهج في السلوك ينقاد الجسد إلى الالتزام بالسكون ... السكون هو سر الدهر الآتي؛ أمّا الكلام فهو أداة العالم الحاضر.][١٨]

مناخ السكون هو الوسط الحيوي الذي خارجاً عنه لا تجد الروح المصلية راحتها الحقيقية. الإنسان الذي تقابل مع الله يدرك – كأنه بالفطرة – المعيار اللازم لاستخدام الكلام حتى يتلافى التشتّت خارج نفسه وكل ما يتعارض مع سكون الفكر.

---

(١٨) S. ISAAC LE SYRIEN, cité dans, I. HAUSHERR, Solitude et vie contemplative, Bellefontaine, 1971, p. 69-71.

ويقول أيضاً مار إسحق:

[كل إنسان محب لكثرة الكلام اعلم أنه فارغ القلب حتى ولو أحسن الكلام. إذا كنت تحب الحق فأحْبِبْ السكون.](١٩)

٦ ـ النسك الجسدي (التعفُّف):

النسك الجسدي في صوره المتعددة هو أحد الأركان الضرورية اللازمة لتبعية المسيح. فبه نحن «نقدِّم أجسادنا ذبيحة حيَّة، مقدَّسة، مرضية عند الله.» (رو ١٢:١)

ففي الواقع لكي نبلغ إلى مجد تجلِّي الجسد المُعدِّ للأبرار بعد عبورنا من هذه الحياة، والاستعداد لتسليم أنفسنا بالكامل للروح القدس ليسود تماماً على كل الكيان، لن يكون لنا طريق آخر إلاَّ ذاك الذي أشار إليه الرب، وهو درب الصليب: فلا بدَّ أن هذا الجسد الحيواني يُزرع في الأرض، أي يُبْذل ويموت عن شكله الخارجي لكي يقوم كياناً روحانياً (كما يقول القديس بولس الرسول ١كو ١٥:٤٤).

إن الزهد في المسرات والملذات الحسية (أي "التعفُّف" وهو ذاته "النسك") لهو أحد الثمار الملازمة لعطية الروح القدس التي نلناها كباكورات للدهر الآتي، والذي عندما نمارسه عملياً نمهِّد لإضرام الموهبة الإلهية فينا وإتيانها بثمر أكثر.

إن التعفُّف أو النسك يُمكِّننا من أن نحيا ونُعبِّر ونشهد بكل كياننا ـ جسداً وروحاً ـ عن سر الموت والقيامة الذي يعمل فينا والذي أُعطينا نعمة الشركة فيه بالعماد. بهذا الزهد نحن نخلع عنَّا جزئياً

ID., ibid, p. 70. (١٩)

طبيعتنا الحيوانية، وأستارنا البالية التي تغطينا بها عقب السقوط بالخطية ونأخذ عربون الثياب النيرة التي أُعدت لنا فنتقي هذا السقوط: "أضاء وجه المسيح في التجلّي كالشمس، وصار لباسه أبيضاً كالثلج ... في الواقع إن لباس أرواحنا هو أعضاء جسدنا التي تنال من قوة الطهارة (وكل التعفّف) ضياءً سماوياً كمثال للقيامة من الأموات."(٢٠)

وقد كتب القديس أنطونيوس الكبير مشيراً إلى أنه بالنسك: "كل الجسد يؤهَّل للتغيير ويخضع لسلطان الروح القدس، وأعتقد أنه ينال نصيباً من الجسد الروحي المزمع أن يكون عليه في قيامة الأبرار."(٢١)

وتبعاً للتقليد المسيحي فإن أساس النسك هو الصوم «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» (مت ٤:٤). بالحرمان من الغذاء أو من بعض الأطعمة الشهية والمثيرة للذة، يشهد الراهب أن علّة الحياة الحقيقية وعضده الذي يعتمد عليه هي كلها من مصدر آخر غير الملذات والمسرات التي تجلبها الأطعمة لجسدنا الحيواني. الروح القدس الذي يسكن في قلوبنا قد رَوْحَن أجسادنا وأحال شهيتنا للأطعمة الأرضية الساكنة في طبيعتنا الجسدية إلى جوع حقيقي لله، ولهذا يستحثنا على الصوم؛ حتى نشارك بمحض حريتنا في هذا التحوُّل الروحي الذي سوف لا يكتمل إلاّ في المجيء الثاني. يقيناً أن حركة الروح هذه، وهذا الشبع الروحي الذي يهبه لنا، لقاء رفضنا للأطعمة الأرضية قد لا يكون مقبولاً من أحاسيسنا الروحية التي لم تنضج بعد بالقدر الكافي،

(٢٠) AELRED DE RIEVAULX Sermon inèdité éd TALBOT, Rome, 1952, p. 110.

(٢١) S. ANTOINE LE GRAND, Lettres, 1, 4.

ولكننا نستطيع دائماً بالإيمان النقي أن نعتمد عليهما (أي حركة الروح والشبع الروحي) ونتوافق معهما ونلتصق بهما. وبهذا الشرط فقط يصبح صومنا مثمراً ومسيحياً حقاً.

إذاً، الصوم والزهد المدعو إليهما الراهب ليسا مجرد انضباط في الأكل والشرب يجعلنا نتحاشى الإفراط، ولا مجرد مراعاة لسُنن خارجية مفروضة حتى ولو كانت هذه ضرورية وواجبة الحفظ بمنتهى الأمانة. معنى الزهد ينبغي أن يُفهم على أنه عامل مساعديمكّننا أن نتخلّص بسهولة من كل مطلب باطل للذات، ومن كل "مشيئتنا الخاصة" ومن كل رغبة في الشبع من الأمور المادية (التي لا يمكن بأي حال أن تسد جوعنا الروحي). حقيقة أن ضعف الصحة بصفة عامة وهبوط القوى الجسدية والعصبية والنفسية، يجبر الإنسان العصري من أن يخفف أكثر من ممارسة الصوم بمفهومه النسكي الصارم كما كان يستوعبه ويمارسه القدماء. إلاّ أن هناك نوعاً آخر من النسك أكثر أهمية وأشد ضرورة (من مجرد الإمساك عن الطعام فترة زمنية): ينبغي أن يُحدَّ الإنسان من اعتياد استخدام المُنَبهات، والمُسكنات، وأمثال هذه العقاقير (إلاّ للضرورة وبأمر الطبيب). لأن هذه إذا أكثر الإنسان من تعاطيها أفرغته من قواه الروحية والنفسية والجسدية.

بناءً على الكتاب المقدَّس والتقليد المسيحي يربط الآباء بين الصوم والصلاة برباط محكم، فمن جهة، يعطي الصوم صلابةً وتثبيتاً لصلاتنا بجعلها قرباناً مُكلّفاً شيئاً من البذل من جهتنا نقدمه بكل كياننا (روحاً وجسداً). فندامتنا على ما اقترفنا من ذنوب مع اعترافنا ببؤس حالنا، ومحبتنا للرب، هذه دائماً تكون عُرْضةً لأن تصبح مجرد أفكار نظرية

وأحاسيس وهمية عاطفية أكثر منها حقيقية واقعية إذا لم تقترن بالصوم الذي يعطيها حيويتها؛ فبالصوم يمكن لصلاتنا أن تكون عملاً أكثر تعبيراً وصادراً عن نيةٍ صادقة، ومن عمق كياننا الذي كرَّسناه كُليَّةً لله وقدَّمناه طواعية ليكون بكامله قدساً للرب.

ومن جهة أخرى، فإن الصوم هو عامل مساعد لا غنى عنه للصلاة التأملية، لأنه ينمِّي فينا الإحساس بالأمور الروحية وتذوُّق الله. لذا نجد أن للصوم أيضاً علاقة قوية مع السكون والخلوة (الاختلاء بالنفس مع الله)؛ ففي الأيام التي نصوم فيها نجد أنفسنا أكثر ميلاً للصمت، واليوم الذي فيه نعتزل لجمع شتات الفكر والتأمل لا يكون مثمراً بدون صوم.

كان الآباء في حياتهم وتوجيهاتهم عادة يضموُّن إلى الصوم السهر. فالصوم يرقِّي فينا الإحساس بتذوُّق (حلاوة) الله: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٤:٨)، وهذا التذوُّق يستحثنا لمجافاة النوم وللتضحية بجانبٍ من راحتنا الجسدية حتى نحظى بنصيب أوفر من الاستمتاع الواعي بالحضرة الإلهية والمناجاة مع الله. لا يوجد شيء أفضل من السهر للتعبير عن يقظة الروح وانتباهها حتى لا يباغتها الفتور الروحي، وعن انتظارها الحار المتلهِّف لمقابلة العريس السماوي "وزياراته" التي تُعِدُّنا لمجيئه في اليوم الأخير.

يقول القديس إسحق النينوي:

[بمجرد أن يبدأ الإنسان في الصوم، يندفع في الحال بالروح للحديث مع الله. الجسد الصوَّام لا يحتمل أن يقضي الليل كله نائماً على فراشه، لأن الصوم بطبيعته سيُحببُ له السهر مع

ا الله.](٢٢)

بالزهد في راحة الجسد واحتمال شظف المعيشة في النوم والملبس مع معاناة البرد القارص أو الحر الشديد، إنما يُعبِّر الناسك المسيحي عن تفضيله للمسرات الروحية عن تلك المادية، وكأنه يعيش المضادات الأساسية التي يطوبها الرب في "العظة على الجبل" ليحظى ببركاتها.

قال أحد آباء البرية:

[إنه لمتعذِّر على الإنسان الذي يستطيب حلاوة هذه الحياة أن يتذوق حلاوة الله، وبالمقابل: مَنْ يذوق حلاوة الله، سيمقت مرة واحدة كل تنعمات هذه الحياة؛ وكما هو مكتوب في الإنجيل أنه لا يمكن لأحدٍ أن يخدم سيدين، كذلك نحن ما دُمنا متعلقين بحب ما هو بشري ودنيوي وولعين بتنعُّم الجسد فلن يمكننا أبداً أن نتعرَّف على حلاوة الله.](٢٣)

ودون أن نقلل البتة من أهمية هذه الطرق المتنوعة من النسك، ينبغي أن نشير إلى نوع خاص من "الممارسات الجسمانية" الأساسية في الحياة الرهبانية، وأعني بها: العمل اليدوي. في بعض الأوساط النسكية الأُولى كان جانب من الزُّهَّاد المغالين في النسك يحجمون عن العمل، خوفاً من خطر توقُّف الصلاة الدائمة وتسليم الحياة بالكامل للعناية الإلهية. ولكن أغلبية آباء البرية وكبار مؤسسي الحياة الديرية المشتركة كانوا على النقيض من ذلك، فقد أصروا بشدة على ضرورة العمل اليدوي.

(٢٢) S. ISAAC DE NINIVE, Mystic treatises; WENSINCK, p. 161.

(٢٣) Apophtégmes, N. 464; REGNAULT, p. 73.

يقول القديس باسيليوس:

[مَنْ تكرَّس بالكامل للحياة التقوية لا ينبغي أن ينتهج الكسل متذرعاً بها للهروب من العمل؛ بل عليه بالأحرى أن يتخذها فرصة لجهاد أقوى وعمل أكثر لكي يَعُول الضعفاء غير القادرين على العمل (بسبب المرض أو كبر السن).][٢٤]

العمل اليدوي هو مطلب أساسي للراهب الذي جعل الفقر أحد نذوره. لذا وجب عليه أن يتحصَّل على قُوتِه بعرق جبينه. وكما هو معروف دائماً فيما يتعلق بنذر الفقر والزهد أننا لا نضع المنفعة الاقتصادية للعمل في اعتبارنا الأول وإنما العمل اليدوي ولا سيما ما يتوافق منه مع لزوميات الحياة الرهبانية الأخرى – من الانعزال عن العالم واختيار المناخ الملائم للتأمل – وقد لا يُدرُّ شيئاً من الربح (إذا قورن بالعمل الذي يؤدَّى بالقرب من العالم). ولكن ينبغي علينا – قبل أي شيء آخر – أن نحرص ما وسعنا الجهد بأن نحتفظ بروح المسكنة وأن تكون حياتنا التي كرسناها كُلِّيَّةً للصلاة في معزل ومأمنٍ من العالم.

توجد علاقات وثيقة أخرى بين العمل اليدوي والروح الرهبانية. فالعمل الذي يُتمِّمه الراهب بجديَّة ومثابرة هو قوة وقائية فائقة ضد الضجر (السأم من الحياة)؛ ومهذب لميل النفس إلى عدم الاستقرار والتلهي بما هو خارجها لمحاولة إشباع ما تعانيه من فراغ، ولهذا فهو يساعد على جمع شتات الحواس وإحكام التأمل. أمَّا التعب البدني الذي ينجم عن العمل (حتى إذا وصل إلى حد الإرهاق) فهو يسوِّغ

---

(٢٤) S. BASILE, Grandes Règles, 37.

للراهب أن يعبِّر بكيانه الجسدي عن حُبه للمسيح المصلوب، وأن يُرسِّخ هذا الحب بعمق في قلبه.

الأعمال العامة المشتركة والأشغال الحقيرة التي لا تجلب على مَنْ يقوم بها أيَّ كرامةٍ أو ميزة خاصة في وسط الجماعة، من شأنها أيضاً أن تساعدنا على التقدُّم في الاتضاع وطبع سماته في كل كياننا.

العمل يجب أن يكون دائماً في توازن متعادل مع الحياة الروحية (أي يكون متمشياً مع الهدف الروحي بلا تطرف ولا تقصير في أدائه)، حتى يكون عنصراً حافظاً لحياة الراهب وقبل كل شيء، مُعبِّراً عن فقرٍ كادح ومثابرة.

ولكن يجب أن ننبه إلى أن العمل اليدوي يمكن أن ينجم عنه مخاطر جسيمة في الواقع العملي (إن لم يؤدَّى بحكمة وبصيرة وتحت إشراف أب روحي مختبر). فقد ثبت بوجه عام أنه من الصعوبة بمكان الإبقاء على مستوى روحي مرتفع لجماعة ديرية في جملتها إذا كانت هذه مندمجة في أعمال كثيرة تستغرق الفكر وتُشغل الروح (عن هدفها الأسمى). ينبغي أن نحترس من شهوة العمل والولع به في ذاته ومن الانهماك بحماس في أعمال زائدة عن الحاجة الضرورية بحجة وجوب التفاني في البذل، ولكن كل ما يحتكر النفس ويصبح وكأنه أساس حياتنا، فإنه يَنُمُّ عن فراغ روحي مُقنَّع ويُعدُّ من أخطر المعوقات للحياة الداخلية ورؤيتنا الواضحة للطريق.

اليقظة الروحية الشديدة لا غِنى عنها دائماً لتدبير خدمات الدير المتعددة والبت فيها من خلال رؤية مستنيرة للهدف الذي نسعى إليه

وهو الاتحاد بالله (بالحب الكامل)، وبالتطلُّع إليه وحده بكل وعينا وكياننا.

٧ ـ الزِيّ الرهباني هو إحدى علامات الزهد:

منذ البداية تقريباً، اعتاد الرهبان أن يتخذوا زِيًّا خاصاً بهم يكون زهيداً بقدر الإمكان ليليق بحياة التجرُّد والبساطة التي نذرناها لله. ومع ذلك لا يمكننا القول بأن الفقر (المنذور) هو قيد الزي أيًّا كان ولا هو يتعارض مع الملابس الطويلة الواسعة التي اتخذتها بعض الأنظمة الديرية سواء في الشرق أو في الغرب (إما لضرورة عملية أو احتراماً لتقاليد موروثة).

فارتداء الزي الرهباني دلالة منظورة يمكن أن تضع في وعي الراهب دائماً أنه "مفروز" ومعتزل عن بقية الناس ليكون "قدساً" للرب. إننا نحمل هذا الزي لأنه تراث مُسلَّمٌ لنا من الآباء، ولأنه علامة رمزية لشركتنا معهم وانتقال مواهبهم إلينا (كما حدث لأليشع مع إيليا). وقد كان في مفهوم الرهبنة القديمة أن إلباس الأب الروحي الزي للراهب الجديد يوم تقديمه النذور (الثلاثة) وتكريسه هو إشارة على تسليمه نعمة التراث الروحي لكل الآباء السابقين.

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـ ت ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء - ناصية شارع الغرفة التجارية - ت ٨٠٨٦٣٧



القديسان أنبا أنطونيوس وأنبا بولا وبينهما الغراب حاملاً الخبزة الكاملة.
رسم فريسكو قديم من هيكل يوحنا المعمدان – دير القديس أنبا مقار

الثمن ١٢٥ قرشاً